

الفصل الثالث

البيئة في الواقع الإيمانى

الفصل الثالث

أولاً : البيئة فى الواقع الإيمانى :

وبعد أن وقفنا بك - أختى القارئ - على جانب من المعلومات البيئية حسبما يصورها الفكر البشرى ، مع إبراز بعض التعليقات الدينية الميسرة بحسب ما يقتضيه السياق - فإننا نود أن نضع بين يديك الجانب المشرق من الحديث عن البيئة فى رحاب عقيدة التوحيد ؛ ذلك لأن تلك العقيدة تجعل الجزء الأخرى امتداداً للعمل الدنيوى وثمره من ثمراته ، يقول الله تعالى :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۚ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) ويقول أيضاً : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ۚ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) وذلك حتى يتسنى من خلال ذلك إبراز الجوانب الوضيئة والمضيئة للكيان البيئى فى جو من الواقع الإيمانى المحسّ المعاش ، فأهمية التصوير الإسلامى للبيئة تكمن فى قدسية مصدره ، وثبات المبادئ التى يتركز عليها ، فضلاً عن ارتباطها بعقيدة المسلم وتكوينه الوجدانى ، فالممارسات البيئية الصحيحة كإمالة الأذى والقذر عن الطريق ونحوه تعتبر ضرباً من ضروب التقرب إلى الله يستوجب فاعلها الثواب باعتبارها شعبة من

(١) سورة القصص : ٧٧

(٢) سورة غافر : ٤٠

شعب الإيمان بالله ، عن أبي ذر قال : قال النبي - ﷺ « عُرِضَتْ عَلَى أَعْمَالِ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا ، فوجدتُ في محاسن أعمالها الأذى يَمَاطُ عن الطريق ، ووجدت في مساوئ أعمالها النُّخامة تكون في المسجد لا تدفن ^(١) . وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ : « إنه خلقَ كل إنسان من بنى آدم على ستين وثلاثمائة مفصل ، فمن كبرَّ الله ، وحمَدَ الله ، وهَلَّلَ الله ، وسَبَّحَ الله ، واستغفرَ الله ، وعَزَلَ حجراً عن طريق الناس أو شوكَةً أو عظْماً عن طريق الناس ، أو أمرَ بمعروف أو نهى عن منكر ، عدد الستين والثلاثمائة ، فإنه يَمسى يومئذ وقد زَحَرَحَ نفسه عن النار » ^(٢)

وعن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال : « الإيمان بضْعٌ وسبعون أَوْضِعٌ وستون شعبة : فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من شعب الإيمان » ^(٣) ، وعن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال : « لقد رأيتُ رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين » ^(٤) وفي رواية للبخارى ومسلم : « بينما رجل يمشى بطريق وجد غصنَ شوك على الطريق ، فأخره فشكر الله له ، فغفر له » . كما يشتمل هذا المنهج على أساس معنوى يزداد عمقاً في وجدان المؤمن بنمو عقيدته ، معتمداً على نظافة القلب والضمير والوجدان من سخائم الغل

(١) رواه مسلم : م (٥٥٣) .

(٢) رواه مسلم .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه مسلم .

والحقد والحسد ، فيحُوطُ تصرفات البشر بسياج متين من مكارم الأخلاق ،
ويعصمهم من التردى فى حمأة الرذائل ، وإلا أصبح الناس كمن يحترق
فى البحر ، أو يطلب من الماء زُبداً .

يقول الدكتور درويش مصطفى الفار ، عالم الجيولوجيا المصرى : كل ما
أصاب البيئة براً وبحراً وجواً إنما نجم عن مرض أخلاقى ، وسُعار أصاب الناس
الذين يسمُّون اليوم المتحضرين والمتقدمين تقنياً وعلمياً ، ونهَمَ حظاً فى
مجتمعاتهم مكان كل عقيدة أو قيمة أو خلق سَوِىٍّ كريم ، إذ تنبنى فلسفة
الحياة عندهم على النجاح وطرائقه فى تحصيل الربح المادى ، للإنفاق منه
على الرفاهية ، وضروب الاستمتاع باللذائذ البهيمية ، ومن هنا لا بأس أن
تتشبع لحوم الأسماك فى محيطاتهم وشواطئهم بالزئبق والكادميوم والرصاص
وغيرها من السموم القاتلة ، ثم لا بأس أيضاً بأن يصدروها إلى بنى آدم فى
العالم الثالث ، ولا بأس أن يبحثوا عن مهربين و« مافيا » لتنتقل نفايات المفاعلات
الذرية أيضاً إلى بلاد ذلك العالم التعس ، دونما وخزة من ضمير ، أو حسابان
لجنة أونار ، وإن التقدم العلمى مطلوب ، والبحث فى آفاق السماوات والأرض
والبحار ، وتيسير حياة الناس مطلوب حتى يقضى الله فى أمر هذه الأرض ومن
عليها ، بل إن ذلك كله فرض كفاية على البشر ، ولكن فى إطار من
الأخلاق يحتم مراعاة عدم تلوث البيئة ^(١) .

(١) جريدة الراية القطرية فى ١٦/٦/١٩٩٢ م.

ثانيا : التوصيف الحقيقي لمشاكل البيئة :

إذا كانت البيئة تُعاني من مشكلات جسام ، مانرى من مشكلة إلهي أكبر من أختها ، وكل منها يؤدي إلى تقويض أركان البيئة ، فضلاً عن كونها تقرب نهايتها المحتومة ، فإن الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء تلك المشكلات تتمثل فى ظلم الإنسان وجوره ، وفساده وإفساده ، وفسوقه عن أمر ربه ، وإسرافه وتبذيره ، والقرآن الكريم يعطينا التوصيف الحقيقي لهذه المشاكل ، يقول الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) ويقول ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ويقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ (٣) ويقول : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ (٤) ويقول :

﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ (٥) ويقول : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (٦) ويقول : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (٧)

(١) سورة الروم من الآية : ٤١ .

(٢) سورة الأعراف ، من الآية : ٨٥ .

(٣) سورة القصص ، من الآية : ٥٩ .

(٤) سورة يونس من الآية : ١٣ .

(٥) سورة آل عمران ، من الآية : ١١٧ .

(٦) سورة الإسراء الآية : ١٦ .

(٧) سورة الأعراف ، من الآية : ٣٣ .

ومن هذه النصوص وغيرها يتضح لنا التوصيف الدقيق لكيثونة الفساد في دنيا الناس ، وأنَّ العلاجَ الناجعَ لأي خلل إنما يكون بكفِّ الأذى ورفع الأيدي عن النواميس الطبيعية التي أودعها الله في الكون ، وأنه لَنَ تستطيع التَّقنية المعاصرة ولا الثراء العريض ، لن يستطيع كل هذا أو غيره توفير سبل التغلُّب على مشكلات الإنسان جميعاً بما فيها مشكلات البيئة مالم تصدر هذه التَّقنيات عن وجهة نظر إسلامية تحترم السنن الكونية التي أودعها الله في خلقه ، وتتفاعل وتتعامل مع مقومات البيئة على أنها نعم تستوجب شكر المنعم ، ولن يكون ذلك أولاً وأخيراً إلا بإيمان حقيقى بالله تنقشع بفضل هذه الظلمات .

ثالثاً : مفهوم البيئة فى التصوير الإيمانى :

إن مفهوم البيئة فى التصوير الإيمانى يعنى جملة الأشياء التى تحيط بالإنسان ، بدءاً من الأرض التى تقفه ، وصعوداً إلى السماء التى تظله ، وما بينهما من العوامل والمؤثرات المختلفة ، كما أنها تتعمق داخل النفس البشرية تضبط ما فيها ، مُستعِلة على غرائز الشرِّ، بل وساعية إلى تهذيبها ، وذلك لأنَّ شريعة التوحيد لاتقف بالإنسان عند حدود الماديات وشكلها ، وإنما تجعلها وسيلة لبلوغ الهدف الأسمى ، والمقصود الأسنى ، ألا وهو تركية النفس وتطهيرها ، وإعادة صياغتها على نحو خالٍ من العقد والانفصامات ، وهو ما تنفرد به الحنيفية السمحة عما سواها من شرائع البشر وقوانينهم الوضعية ، التى إن سيطرت حيناً على الجوارح ، فلا سلطان لها البتة على الجوانح ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (١)

(١) سورة الشمس : ١٠٩

ثم إن اتباع هذا المنهج ليصل بالإنسان إلى حدّ الاتزان والاعتدال من منطلق قوله تعالى : ﴿ لِكَلَّا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١) . فلا يستسلم المرء في ظلها

للأسى والأسف على غرض قد فات تحقيقه، فضلاً عن استبداد الفرح به عند تحقيق أهدافه وأغراضه ، وذلك لأن خطر الاستغراق في الأفراح لا يقل شأنًا عن تحطيم الآمال والاستغراق في الأسى على مافات .

رابعاً : البيئة كيان حي :

تشكل البيئة في الواقع الإيمانى المحس كياناً حياً نابضاً ، له من الأحاسيس والانفعالات ما يتصل إلى حد الفرح برؤية عباد الله الصالحين ، أو الحزن والبكاء عند فقدهم ، لما اعتادته منهم من عمل الخير فيها ، ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (٢) ، كما أنها لاتأبى بفقد الطالحين أو هلاكهم ، لما يرتكبونه فيها من سفهٍ وحماقيةٍ ، فليست الأرض مجرد جرم يطؤه الناس بأقدامهم ، ويفعلون على ظهرها ما يشاءون ، وليست السماء بأجرامها ثريات ترقبنا في عليائها غير عابئة بنا ، كلاً فالنصوص متوافرة ومتضافرة على أنها كيانات لها حس وانفعال خاص ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ۗ ﴾ (٣) ويقول : ﴿ يَجْبَالُ أُوتِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ (٤) ،

(١) سورة الحديد ، الآية : ٢٣

(٢) سورة الفرقان ، من الآية : ٦٣ .

(٣) سورة الإسراء ، من الآية : ٤٤ .

(٤) سورة سبأ ، من الآية : ١٠ .

ويقول : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ^(١) ويقول : ﴿الرَّ تَرَأْنِ أَنْ
 اللَّهُ يَرْجِيَ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِثْلِهِ وَيُنْزِلُ
 مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ
 سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي
 الْأَبْصَارِ﴾ ^(٢) ويقول : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ
 وَرَبَّتْ وَأُنتَبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ^(٣) ، ويقول : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ
 يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ^(٤) .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله - ﷺ : « لا يسمع صوت
 المؤذن جن ولا إنس ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة » ^(٥)
 وعن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله - ﷺ : « إني لأعرف حجراً بمكة
 كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن » ^(٦)

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال : أتى ابن عباس - رضی الله
 عنهما - رجلاً فقال : يا أبا العباس ، رأيت قوله تعالى : « فما بكت عليهم
 السماء والأرض » فهل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ قال : نعم ، إنه

(١) سورة الدخان، من الآية : ٢٩ .

(٢) سورة النور من الآية : ٤٣ و٤٤ .

(٣) سورة الحج ، من الآية : ٥ .

(٤) سورة الأنبياء، من الآية : ٧٩ .

(٥) رواه ابن ماجه ومالك في الموطأ

(٦) رواه مسلم .

ليس أحد من الخلائق إلا وله باب فى السماء ، منه ينزل رزقه ، وفيه يصعد عمله ، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه فى السماء الذى كان يصعد فيه عمله ، وينزل منه رزقه ، بكى عليه ، وإذا فقد مصلاه من الأرض التى كان يصلى فيها ويذكر الله عزوجل فيها بكت عليه ، وإن قوم فرعون لم تكن لهم فى الأرض آثار صالحة ، ولم يكن يصعد إلى الله - عزوجل - منهم خير ، فلم تبك عليهم السماء والأرض (١) .

وقال مجاهد : إن السماء والأرض يئسيان على المؤمن أربعين صباحاً ، قال أبو يحيى : فعجبت من قوله ، فقال : أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكى على عبد كان لتسيحه وتكبيره فيها كدوى النحل ؟ .
وفى معنى بكاء السماء والأرض أقوال أظهرها كما قال القرطبي : أنه كالبكاء الذى نعرفه .

خامساً : مكونات البيئة فى الواقع الإيمانى :

تتكون البيئة فى الواقع الإيمانى من شقين ، هما :

(أ) المكونات المادية :

وتشمل جميع المكونات المادية الحية وغير الحية مما سبقت الإشارة إليه ، كالأرض والماء والهواء والضيء والنبات والحيوان ، وسنكتفى هنا بإيراد بعض النصوص الخاصة بكل عنصر تحاشياً للتكرار ؛ لنرى قدرة الله وحده فى تسخير وتسيير هذه المواد ، والأسلوب الأمثل للاستفادة منها ، وذلك على النحو التالى :

(١) تفسير ابن كثير ١٤٢/٤ .

١ - الأرض

* علاقتها بالسماء :

- من حيث التكوين :

يقول الله - تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ (١)

أى ألم يعلم هؤلاء الجاحدون أن السماوات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هى وأقر الأرض كما هى ؟ قال الحسن وقتادة : كانت السماوات والأرض ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء ، وقال ابن عباس : كانت السماوات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت ، ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات (٢)

وتقرر هذه الآية الحقيقة العلمية المتفق عليها ، ألا وهى أن السماوات والأرض كانتا متصلتين ، فالرتق الضم ، والفتق الانفصال ، وآخر ما وصل إليه البحث العلمى فى هذا الصدد هو أن هذا الكون قبل أن يأخذ صورته الحالية كان حشداً هائلاً متجمعاً فى أبسط صورة لقوى الذرات المتصلة الواقعة تحت ضغط هائل لا يكاد يتصوره العقل ، وأن جميع أجرام السماء اليوم ومحتوياتها بما فيها المجموعة الشمسية والأرض كانت مكدسة تكديساً شديداً فى كرة لايزيد نصف قطرها على ثلاثة ملايين من الأميال ، وهو قوله تعالى :

« ففتقناهما » إشارة لما حدث لذلك السائل النووى الأول من انفجار عظيم

(١) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٠

(٢) انظر صفوة التفاسير للصاوبنى ج ٢ ص ٢٦١ .

انتشرت بسببه مادة الكون فيما حولها من أجواء ، انتهت بتكوين مختلف
أجرام السماء المنفصلة ، بما فيها المجموعة الشمسية والأرض (١).

ويقول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (٢) أى وجعلنا السماء فوقهم كالسقف المرفوع ، وحفظناها من
أن تقع بما فيها عليهم ، ومع هذا فهم منصرفون عن النظر والاعتبار ، فتقرر
الآية أن السماء وما فيها من أجرام محفوظة بكيانها لا خلل فيها ومحفوظة
كذلك من أن تقع على الأرض ، وكل ذلك الحفظ بأسباب غير ظاهرة لنا
وإن كنا نرى آثارها ، يقول الله - تعالى - : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ
تَرَوْنَهَا ﴾ (٣) ويقول أيضاً : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (٤).

والسماء كل ما علاك ، تبدأ بالغلاف الهوائى الذى يحمى أهل الأرض
من كثير من أهوال الفضاء التى لا تستقيم معها الحياة بحال ، مثل الشهب
والنيازك والأشعة الكونية ، فالغلاف الهوائى الذى تحتفظ به الأرض بقوة
الجاذبية ، ولا سبيل إلى فقدته فى خضم الفناء المتناهى ، وفوق الغلاف الهوائى
أجرام السماء على أبعاد متناهية ومختلفة ، تحتفظ بنظام دورانها وكيانها منذ
القدم ، فالغلاف الجوى وسائر الأجرام السماوية التى تشاهد بمساقطها على
القبة السماوية فى أنظارنا ، تظهر لنا كأنها متسعة اتساعاً كبيراً أفقياً ، فى حين

(١) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص ٤٧٦

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٢ .

(٣) سورة لقمان ، من الآية : ١٠ .

(٤) سورة الرعد ، من الآية : ٢ .

يظهر الاتساع الرأسى أقل بكثير من الاتساع الأفقى ، تتمثل هذه الظاهرة عند مشاهدة قرص الشمس أثناء الشروق أو الغروب حيث يظهر أكبر مما هو عليه عندما تكون الشمس فى سَمْت الرأس ، ومصدر ذلك هو الخداع البصرى الذى يجعلنا نقدر المسافات الأفقية بدقة أكثر من المسافات الرأسية^(١) .

* من حيث استمرارية الحياة :

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْنًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (٢) ويقول - جلَّ ذكره :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) ويقول : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٤) ويقول : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) .

فعناصر التربة ومركباتها الميتة والساكنة عندما ينزل عليها ماء المطر تذوب فيه ، فيسهل وصولها إلى بذور النباتات وجذورها حيث تتحول إلى خلايا وأنسجة وأعضاء حية ، وبذلك تبدو حية ويزيد حجمها بما يتخللها ويعلوها من نبات ، وكل ذلك يعتبر غذاء للحيوان ، فسرعان ما تدب الحياة على ظهر

(١) المنتخب فى تفسير القرآن (مرجع سابق)

(٢) سورة ق : ٩-١١

(٣) سورة الأنبياء : ٣٠

(٤) سورة الحج ، من الآية : ٥

(٥) سورة فصلت : ٣٩

الأرض ، ولا شك أن استمرارية الحياة متوقفة على ما تجود به السماء من ماء لأهل الأرض .

* شكل الأرض :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾^(١) ويقول : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾^(٢) فالأرض فى شكلها ليست كاملة الاستدارة ، ولم يتمكن العلماء من قياس أبعادها بالدقة إلا منذ ٢٥٠ سنة تقريباً ، عندما قامت بعثة من المتخصصين فى علم المساحة بقياس المسافة الطولية بين عرضين متساويين فى الطول تفصلهما درجة واحدة قوسية ، وذلك فى مختلف أنحاء العالم ، وتبين من هذه القياسات أن نصف القطر الاستوائى يزيد على نصف القطر القطبى بمقدار ٢١٥ كليومتر تقريباً ، أى أن الأرض أنقصت من أطرافها ممثلة فى القطبين ، ومن المعلوم أن شكل الأرض وأبعادها هو الأساس فى رسم الخرائط^(٣) .

ويقول تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾^(٤) ويقول : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾^(٥) .

فالأرض ممهدة مستوية بقدرة الله - تعالى - مذلة لعباده ، فلا تتأبى عليهم ولا تتوَعَّر .

(١) سورة النازعات : ٣٠

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٤٤

(٣) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص ٤٧٩ .

(٤) سورة طه ، من الآية : ٥٣ .

(٥) سورة الملك : ١٥ .

* الأرض والجبال :

يقول الله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ (١) ويقول : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ (٢) ويقول جل ذكره : ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٣) فالله سبحانه قد جعل في الأرض جبلاً ثوابت لئلا تضطرب الأرض بأهلها أثناء دورانها ، كما جعل فيها طرقاً فسيحة ومسالك واسعة تعينهم على الوصول إلى أغراض حياتهم ، ونجد بهذا الخصوص تعليقاً علمياً قيماً في هامش المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، عند تفسير هذه الآية : « لما كان باطن الأرض منصهرًا سائلاً ، فلوفرنا أن الجبال وضعت في بعض نواحي الكرة الأرضية كأنها صخور هائلة مرتفعة فإن ثقلها قد يؤدي بالقشرة الأرضية أن تميد أو تنثنى أو تتصدع ، لذلك جعل - جل شأنه - الجبال رواسي : أي ذات جذور ممتدة في داخل القشرة الأرضية إلى أعماق كبيرة تتناسب مع ارتفاعها ، فهي كأنها أوتاد ، كما جعل كثافة هذه الارتفاعات والجذور أقل من كثافة القشرة المحيطة بها ، كل ذلك حتى يتوزع الضغط على القشرة العميقة بحيث يكون متساوياً في جميع أنحاءها ، فلا تميد أو تتصدع ؛ لأن التوزيع التماثلي للأثقال على سطح كروي لا يكاد يحدث تأثيراً يذكر ، وقد أثبت العلم الحديث أن توزيع اليابس والماء على الأرض ووجود سلاسل الجبال عليها مما يحقق الوضع الذي عليه الأرض ،

(١) سورة ق ، من الآية : ٧ .

(٢) سورة الرعد ، من الآية : ٣ .

(٣) سورة الأنبياء : ٣١ .

وقد ثبت أن الجبال الثقيلة دائماً أسفلها مواد هشة وخفيفة ، وأن المواد الثقيلة الوزن توجد تحت ماء المحيطات ، وبذلك تتوزع الأوزان على مختلف الكرة الأرضية ، وهذا التوزيع الذى أساسه الجبال دائماً قصد به حفظ توازن الكرة الأرضية ، ولما ارتفعت الجبال حدثت السهول والأودية ، والممرات بين الجبال وشواطئ البحار والمحيطات والهضبات ، وكانت سبلاً وطرقاً » ومن قدرة الله وحكمته إحداث هذا التوازن وجعله ثابتاً عن طريق انسياب المواد الأرضية المكونة للقشرة الرقيقة تحت الطبقات السطحية ، وذلك من الأثقل إلى المكان الأقل ثقلاً .

كما يذكرنا القرآن بأن الله - تعالى - إذا أراد لهذه الدنيا زوالاً يخل هذا التوازن بنسف هذه الجبال وتسييرها، وجعلها كالعُهن المنفوش ، تطير فى الفضاء كالهباء ، ويقول الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ (١) ويقول أيضاً : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ (٢) ويقول : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ (٣) .

فيوم القيامة تأخذ الجبال هذه الصور الهشة المتطايرة تاركة أماكنها من الأرض ملساء مستوية ، لا تبصر فيها ارتفاعاً ولا انخفاضاً ، كأنها لم تكن معمورة من قبل .

(١) سورة طه : ١٠٥-١٠٧

(٢) سورة التكوين : ٣

(٣) سورة القارعة : ٤ و٥

* اختلاف ألوان البقاع :

ويقول الله - تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَحِيلٌ صُنَوَانٌ وَغَيْرُ صُنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) ويقول أيضاً : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ * وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنْهَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (٢)

فمن المعروف أن للتربة والبيئة أثراً قوياً على صفات النبات الطبيعية والكيميائية ، فمنه الأبيض والأحمر والأصفر والأسود ، ومنه الحلو والحامض حتى وإن زرعت جميعها في بقعة واحدة وسقيت بماء واحد ، فالأحياء المختلفة تحتاج إلى عناصر معينة لغذائها ، وبالتالي تتأثر بها ألوانها ، ولعل سر إعجاز هذه الحقائق القرآنية يرجع إلى إخراج ثمرات مختلفة الألوان بالرغم من أن شجرها يروى بماء واحد ، وكذلك خلق جبال مختلفة الألوان مع أن أصلها واحد ، هي مادة متجانسة التركيب ، أصل معينها باطن الأرض ، ويسمى الجيولوجيون « الصهارة والمagma » وهذه الصهارة الواحدة عندما تنبثق في أماكن مختلفة من الأرض ، وعلى أعماق مختلفة من السطح يعترى تركيبها الاختلاف ، فتتصلب آخر الأمر في كتل أو جبال مختلفة المادة والألوان ، فالأصل واحد والفروع متباينة ، وفي كل هذا نفع لبني آدم .

(١) سورة الرعد : ٤ .

(٢) سورة فاطر : ٢٧ و ٢٨

وكذلك اختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام لا يظهر فى النطف التى تنشأ منها ، وإنما هى دقائق وأسرار ، فالخصائص الوراثية تحافظ على فطرة الأشياء واستمرارها ، وأحق الناس بخشية الله العلماء الذين أوقفهم الله على هذه الأسرار .

* اختلاف خواص بقاع الأرض :

وإذا كانت الاختلافات اللونية تمثل مظهراً من مظاهر قدرة الله فى الأرض ، وآية تدل على وحدانيته وتفردته فى كل شىء ، فهناك مظهر آخر من مظاهرها لا يقل فى مجال الإعجاز عن سابقه ، ألا وهو اختلاف خواص تلك البقاع من حيث صلاحيتها للإنباء والنبات ، ونستأنس لذلك بحديث رسول الله - ﷺ فضلاً عن الآيات المتقدمة - عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله - ﷺ :

« إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان (أرض لانبات فيها) لا تمسك ماءً ولا تبت كلاً فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه بما بعثنى الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » (١) .

(١) متفق عليه

٢- الماء :

الماء هو السائل الذى ينهمر من شآبيب رحمة الله ، فتفيض به الأنهار والبحار والبحيرات والمحيطات والعيون ، ونظراً لأهميته فى الحياة لكل شيء خلقاً وإصلاحاً فإن الشاعر قد عرفه تعريفاً دقيقاً حتى قيل عنه : عرف الماء بعد الجهد بالماء .

وقد ورد ذكر الماء فى القرآن بمعناه الذى نعرفه ٥٩ مرة ، كما ورد فى خمسة مواضع بمعنى ماء التناسل أو النطفة ، ونحن نورد الأخيرة هنا لسهولة حصرها فيما يلى :

يقول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا جَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (١) .

ويقول عزيمٌ قائل : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَنِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴾ (٢) .
ويقول : ﴿ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ (٣) .

ويقول : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ (٤) .
ويقول : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ ... ﴾ (٥) .

(١) سورة الفرقان : ٥٤ .

(٢) سورة السجدة : ٨٧ .

(٣) سورة المرسلات : ٢١ و ٢٠ .

(٤) سورة الطارق : ٦ و ٥ .

(٥) سورة النور ، من الآية : ٤٥ .

* أهمية الماء للحياة :

يقول الله تعالى : ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١) . وبرجعونا إلى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم لهذه الآية

وجدنا فى هامشه تعليقا يقول : « فقد أثبت علم الخلية أن الماء هو المكون الهام فى تركيب مادتها ، وهى وحدة البناء فى تركيب الكائن الحى نباتاً كان أو حيواناً ، كما أثبت علم الكيمياء الحيوية أن الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التى تتم داخل أجسام الأحياء ، فهو (الماء) إما وسط ، أو عامل مساعد أو داخل فى التفاعل ، أو ناتج عنه . »

وتأسيساً على ما سبق نستطيع أن نلمح إلى أبرز فوائد الماء :

- الماء أساس الحياة : إننا لا نستطيع أن نتصور حياة بدون ماء ، وإن أمكن وجود حياة بدون هواء ، فلا يوجد بين سائر الأحياء كائن واحد دقّ أو كبير يستطيع الحياة بدون ماء ، فى الوقت الذى يمكننا فيه أن نرى بعض الأحياء تعيش بدون هواء ويطلق عليها : كائنات لاهوائية ، كـ بعض أنواع البكتريا ؛ ولذلك نجد أن نسبة الماء فى أجسام الأحياء النشطة (أى غير الساكنة) تتجاوز ٩٠ ٪ ، فهو نهر الحياة الدافق فى العروق ، يحمل الغذاء والهواء ، مُخلصاً إياه من نفاياته الضارة ، تنحاً فى النبات ، بولاً وعرقاً وبخاراً فى هواء الزفير للإنسان والحيوان .

(١) سورة الأنبياء : ٣٠

– الماء هو الحاضنُ الأوَّلُ للحياة : إن بيئة البحار هي البيئة الحانية على الأحياء ، فهي أكثر ثباتاً من بيئات اليابس ، ويعتقد العلماء أن الحياة أوَّل ما دبت على الأرض دبت في الماء ، ونحن نميل إلى ذلك ، ونستأنس له بآية الفتق والرتق ، حيث أعقب هذه الظاهرة ذكر الماء وأنه أصل الحياة ، كما نستأنس له بقول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُودُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (١).

(١) سورة هود : ٧

114

وبالجملة فقصة الماء مع الإنسان قصة طويلة ، تبدأ منذ كان نطفةً سابحة في الماء . ثم جنينا محفوظاً في قراره المكين من كل أذى في قربة من الماء ، تصله أسباب الحياة كلها من أمه في الحبل السرى محمولة مع الماء ، ثم وليداً يرشّف أولَ غذاء له من ثدى أمه لبناً سائغاً قوامه الماء ، بل إن الماء مع الإنسان حتى في آلامه وأحزانه يسكبه دموعاً تغسل أشجانه ، فلا عجب أن يستطيع الإنسان الصبر على الجوع أياماً كثيرة ولكنه لا يتحمل الظمأ إلا يوماً واحداً أو أربعة أيام (١) .

مصادر الماء :

١ - المطر : يقول الله تعالى - ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (٢).

ويقول جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣)

ويقول أيضاً : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ (٤)

(١) عالم المعرفة ، مجلد ١٩٨٢/٤ ص ٨١

(٢) سورة المؤمنون : ١٨

(٣) سورة الأنعام : ٩٩ .

(٤) سورة الأنفال ، من الآية : ١١

ويقول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * بُنِيَ لَكُمْ بِهِ الْأَرْزَاقُ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١)

ويقول الله تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ (٢)

ونحن نرى من جملة هذه الآيات وغيرها أن ماء المطر يأتينا من جهة السحاب ، وأن هناك قدرة عجيبة ونظاماً دقيقاً لتكوين السحاب وتيسير دوران الماء في هذا الكون ، فعندما يتصاعد بخار الماء من أسطح البحار والمحيطات يتكثف على شكل قطيرات ماء دقيقة لاتلبث أن تتكون على هيئة وحدات صغيرة من السحب ، ثم تنضم أعداد منها بعضها إلى بعض مكونة ما يعرف بالسُّحب الرُّكامية ، وهي سحب يتراكم بعضها فوق بعض ، حتى يصل متوسط أعماقها في الاتجاه الرأسى من ١٥ إلى ٢٠ كليومتراً ثم بعد ذلك تأتي الرياح فتقرب هذا السحاب بعضه من بعض فيحدث تفريغ كهربى لكل سحابتين تحملان نوعين مختلفين من الشحنة ، فيحدث البرق فتَهْطَل المِياه مطراً طيباً على الأرض ، فتحيا ويحيا عليها الأحياء ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ

(١) سورة النحل : ١٠ و ١١ .

(٢) سورة النور : ٤٣ .

فتنزل الأمطار على اليابس إلى الأنهار ، فالبهار ، فالمحيطات . ثم يتصاعد بخار الماء ويتعاقب نزول المطر ، وهكذا إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

٢- المياه الجوفية : يقول الله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْقَى فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾ (٢) . ويقول عز من قائل : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَقٍ كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (٣)

فمن رحمة الله سبحانه أن جعل للأرض قدرة على الاحتفاظ بجانب من ماء المطر في باطنها ، فضلاً عما تحفظه في منخفضات - هي البحار والمحيطات - أي أن إسكان الماء في الأرض إما أن يكون على سطحها أو في باطنها ، فالمياه الجوفية تتسرب إلى الأرض ثم تستقر في أحواض تركيبية شاسعة، يمكن استغلالها جيداً كتلك الأحواض التي توجد في الصحراء الغربية بليبيا ، وقد تم استغلالها بإنشاء النهر الأعظم ، كما قد تنفجر هذه المياه عيوناً أو تتسرب إلى مناطق أخرى عبر مسام التربة فتحياها بعد موتها ، يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٤)

(١) سورة الحجر : ٢٢، ٢١ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ٧٤

(٣) سورة الرعد : ١٧

(٤) سورة السجدة : ٢٧

* نوع المياه وارتباطها بالحياة :

بالرغم من تنوع الماء إلى عذب وملح فإن كلاهما يؤدي للأحياء دوراً كبيراً عظيم النفع جليل الفائدة ، ويتضح لنا هذا الدور في ضوء النصوص التالية : يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُونٍ لَّحْمَاطٌ رِيًّا وَنُخْرِجُوهَا حَلِيَّةً تَلْبَسُوهَا وَتَرَى الْفُلُكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) ويقول أيضاً : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِهِ ﴾ (٢) .

ويقول - جل شأنه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ (٣) .
ويقول : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ (٤) .

فالماء العذب يستخدم في الشرب وري الأراضي الزراعية وسائر أغراض الحياة ، كما يشترك مع الماء المالح في استخراج الأسماك التي تستخدم في الغذاء واستخراج الحلى ، وتسيير السفن ، وحديثاً أمكن تحلية مياه البحر لاستخدامها في أغراض الحياة المختلفة .

(١) سورة فاطر : ١٢

(٢) سورة الأنفال ، من الآية : ١١

(٣) سورة الفرقان : ٥٣

(٤) سورة الرحمن : ١٩ و ٢٠

* تلازم السحب والمطر والرياح :

هناك تلازم بين كل من المطر والسحاب والرياح ، فالرياح هي التي تعمل على تجميع الواحدات الصغيرة من السحاب وتركم بعضها إلى بعض، ثم تُقلِّها إلى حيث شاء الله فتفرغ حمولتها من المياه العذبة ، فتجيا بها الأرض الميتة ويرتوى بها الناس والأحياء ، وتتضح لنا تلك العلاقة من خلال استعراضنا للنصوص التالية :

* يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ (١) ويقول : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْفُشُورُ ﴾ (٢) ، ويقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) . ويقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِي كَثِيرًا ﴾ (٤) .

ويقول : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٥) .

(١) سورة الروم ، من الآية : ٤٦

(٢) سورة فاطر : ٩ .

(٣) سورة الأعراف : ٥٧

(٤) سورة الفرقان : ٤٨ و ٤٩

(٥) سورة الروم : ٤٨ .

* بالشكر تدوم النعم :

إن كل ما أنعم الله به على العبد من المكونات الرئيسية للبيئة كالأرض والماء والهواء يستوجب مزيد الشكر طمعاً في استدامته ، وقد أخطأ الجاحدون عندما ظنوا هذه حقوقاً مكتسبة ، فأخذوا يعبثون بها ، فضلاً عن كفرهم بخالقها ، ومن هنا فقد جاءت آيات القرآن الكريم توضح لنا تلك القضية ، وأن الذى أجرى هذه النعم هو وحده الذى يستطيع حبسها ومنعها ، ولك أن تمنع النظر معنى فى النصوص الكريمة التالية :

يقول الله تعالى : ﴿ ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ (١)
ويقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) ويقول : ﴿ أَمْ نَهَذَا الَّذِي يَرزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ (٣) ويقول : ﴿ فَلْأَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ (٤) إلى غير هذا من النصوص الكثيرة التى توضح لنا أن أسرار التردى البيئى تكمن وراء جحود هذه النعم .

(١) سورة الملك : ١٦ و ١٧

(٢) سور الواقعة : ٦٨ - ٧٠

(٣) سورة الملك : ٢١

(٤) سورة الملك : ٣٠

* النيل والفرات فى السُّنة :

عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ : « ثم رُفِعَتْ إلى سِدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، قال جبريل : هذه سِدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات » (١) .

إن سِدرة المنتهى شجرة قائمة فى المكان الذى ينتهى إليه ، وقد بينها النبى - ﷺ - بقوله : إليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط فيقبض منها « كما جاء فى رواية مسلم . وحتى لا يختلط الأمر على الأذهان ، فإنه إذا كان النيل ينبع من بحيرات وهضبات أفريقيا ، والفرات ينبع من جبال أرمينيا ، فإن لهما وجودات متعددة ، تبدأ من النبع العام فى سِدرة المنتهى ، وتنتهى إلى منبعيهما فى الجبال والبحيرات حيث يراها الناس ، ومما يؤكد هذا أن النبى - ﷺ - قد رآهما فى السماء الأولى ليلة الإسراء والمعراج ، فقد روى البخارى ومسلم من طريق شريك بن نمره ، أن النبى - ﷺ - رأى فى السماء الأولى نهرين يطردان فسأل عنهما فقال : « هذان النيل والفرات عنصرهما » ، وتلك مرتبة من مراتب تنزلا تهما الوجودية .

ولقد رأى النبى ذلك على صورة مثالية ، كما ضربت له الأمثال فى طريق الإسراء لكثير من الأشياء الأخرى ، ولعل السر فى أن الله قد أراه هذين دون غيرهما هو أنهما المركزان اللذان تركزت فيهما قوة الإسلام ، ومنهما انتشرت الدعوة إلى سائر الأقطار والشعوب ، فرؤيته لهما بشارة كبرى بأن

(١) رواه البخارى .

رسالته ستغمر الوجود وتعم سائر الممالك والشعوب ، وقد كان النبي في حاجة إلى هذه البشريات التي يثبت الله بها فؤاده ، ويكشف له بها عن كثير من حقائق الحياة .

٣ - الثروة الحيوانية :

لقد حفلت آى القرآن الكريم بذكر الثروة الحيوانية فى البر وفى البحر ، مع تفنن فى ذكر أنواعها وأوصافها وفوائدها ، فضلاً عن ضرب المثل ببعضها وصولاً إلى العظة والاعتبار ، كما حفلت السنة النبوية ببيان أسلوب المحافظة عليها والرفق بها ، ذلك لأنها كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ ﴾ (١) ، كما ورد ذكرها فى القرآن كألوان العذاب الذى يسلطه الله - تعالى - على الكافرين ، أو متحدياً إياهم بأن يخلقوا شيئاً من أصغرها كالذباب ونحوه ، ولقد بلغت عناية القرآن بها حدّاً نجده من خلاله أنه سُمى سوراً بأسماء بعض الحيوانات ، مثل : البقرة ، والنحل ، والنمل ، والعنكبوت ، والفيل ، كما نجد فيه سورة الأنعام ، ونظراً لضخامة هذا الموضوع فسنكتفى هنا بذكر طائفة من النصوص توضح لنا الجوانب التى ألحنا إليها حتى يسهل الإمام بها :

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ... ﴾ (٢) .
﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمَلَةٌ وَفَرَسًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ * ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذِينَ كَرِهْتُمْ

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ٣٨ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ٢٦ .

حَرَّمَ أَمْ الْإِنْسِيْنَ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنْسِيْنَ نَبْعُونِي يَعْلَمُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ *
 وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَذَكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإِنْسِيْنَ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
 أَرْحَامُ الْإِنْسِيْنَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قُلْ لَا أَجِدُ فِي
 مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ
 فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا اهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ
 رَّحِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا
 إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا
 لَصَادِقُونَ ﴿١﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ
 فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٢﴾
 ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غٰفِلُونَ ﴿٣﴾

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ
 حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ
 الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ
 مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

(١) سورة الأنعام : ١٤٢ - ١٤٦ .

(٢) سورة الأعراف : ١٣٣ .

(٣) سورة يوسف : ١٣ .

(٤) سورة النحل : ٥ - ٨ .

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ﴾ (٢).

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَسَّهُ مِثْلُ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣).

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ...﴾ (٤).

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ (٥).

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦).

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٧).

(١) سورة النحل : ٤٨ .

(٢) سورة النحل : ٨٠ .

(٣) سورة الأعراف : ١٧٥ و ١٧٦ .

(٤) سورة الكهف ، من الآية : ٣٢ .

(٥) سورة الشعراء : ١٥٥ .

(٦) سورة النمل : ١٨ .

(٧) سورة النمل : ٢٠ .

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١) .

﴿... إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (٢)

﴿وَأَقْصَدُ فِي مَشِيكَ وَأَغْضُضُ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (٣) .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ *
وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ
أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٤) .

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا
لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٥) .

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٦) .

﴿وَإِنْ يُؤْخَذِ لِمَنْ أَلْمَسَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ
الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ
فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٧) .

(١) سورة العنكبوت : ٤١ .

(٢) سورة الحج ، من الآية : ٧٣ .

(٣) سورة لقمان : ١٩ .

(٤) سورة يس : ١٧١-١٧٣ .

(٥) سورة الأنبياء : ٧٨ .

(٦) سورة الغاشية : ١٧ .

(٧) سورة الصافات : ١٣٩-١٤٤ .

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ (١) .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (٢) .

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ
وَمَنْ كُلِّي تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ
لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣) .

* مقررات الرفق بالحيوان خلق إسلامي :

إن مقررات الرفق بالحيوان ميدان رحب فسيح في شرع الله ، نجد ذلك واضحاً في المنهج النظري وضوحه في التطبيق العملي ، يتمثل ذلك في الإجابة الحكيمة لرسول الله - ﷺ - حينما سئل : أئن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال : « نعم ، في كل ذات كبد رطبة صدقة » . وفي تلك الوصية الرحيمة : « اتقوا لله في هذه البهائم المعجمة ، فاركبوها صالحةً ، وكلوها صالحةً » .

وفي ذلك التهديد الشديد : « مَنْ مَثَلَ بَذَى رُوحٍ ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مَثَلَ اللَّهِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، وقد مر رسول الله - ﷺ - على حمار قد وسم في وجهه (كواه صاحبه بالنار في وجهه) ، فقال : « لعن الله الذي وسمه » (٤) .

(١) سورة القارعة : ٤ .

(٢) سورة الفيل : ١ .

(٣) سورة فاطر : ١٢ .

(٤) رواه مسلم

واليك طائفة من الرفق بالحيوان فى التطبيق العملى :

* كان الرسول - ﷺ - يدق الشعير لبغلته «دُلْدُل» حينما سقطت أسنانها وكُفَّ بصرها .

* وكان يميلُ الإناء للهرة فى بيته لتتمكن من رى ظمئها .

* رأى عمر بن الخطاب رجلاً يسحب شاةً من رجلها ليذبحها ، فقال له : «وبلك ، قدَّها إلى الموت قوداً جميلاً» .

* نزلت حمامة وعششتْ بفُسطاط (خيمة) عمرو بن العاصِ إبان الفتح الإسلامى لمصر ، فلما أراد الانصراف لم يُهجَّها بتقويض الفسطاط ، ولكنه تركه من أجلها ، فكان ذلك سبباً فى تكاثر العمران حوله وقيام مدينة كبيرة عرفت بهذا الاسم ، وهى مدينة الفسطاط .

* الرفق بالحيوان فى الأحكام الفقهية :

* نفقة الحيوان واجبة على مالكة .

* إذا لجأت هرة (قطة) إلى بيت شخص وجبت نفقتها عليه إذا لم تقدر على الانصراف .

* يُحظر تعذيب الدواب بضربها ، أو تحميلها أكثر من طاقتها ، وكانت مراقبة هذا الأمر من بين مهام المحتسب (المفتش) ، وقد يكون ذلك شبيهاً بمهام رجال المرور فى مراقبة الطرق لمعرفة الحمولة والسرعة وما إلى ذلك .

* أنشئت الأوقاف الخيرية للكلاب الضالة ، حيث توضع فى أماكن مخصصة لرعايتها استنقاذاً لها من الجوع حتى تستريح بالموت أو الاقتناء .

وصدق رسول الله - ﷺ - إذ يقول : «عُذِّبَتْ امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، لا هى أطعمتها وسقتها ، إذ حبستها ،

ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض» (١) .

وعن أنس قال : نهى رسول الله - ﷺ - أن تصير البهائم» (٢) .
وقد أوجب الإسلام زكاة في الأنعام السائمة على نحو قررته كتبُ
الفقه.

٤ - الثروة النباتية :

وكما ذكرنا الثروة الحيوانية ، فإن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة
يعنيان ببيان الثروة النباتية عناية فائقة ، تتجلى لنا من خلالها أبرز صفات
وملامح تلك النباتات ، وكذلك خواصها ، وعلاقة الإنسان والحيوان بها ،
كما نرى بعضها مادة خصبة لضرب الأمثال وإحياء الموتى ، بل وأمر الإنسان
بالتفكير في كل هذا ، وأن الله وحده هو القادر على الإنبات ، وأنه تعالى هو
القادر على تحطيم تلك الزروع عقاباً للمخالفين عن أمره ، قال تعالى :
﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَلَمًا
فَبَطَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ (٣) .

وحتى نقف على بعض تلك الملاحظات فسندكر جانباً من النصوص
التي تدلنا على هذه الحقائق فيما يلي :

يقول الله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ

(١) متفق عليه ، رواه ابن عمر .

(٢) متفق عليه .

(٣) سورة الواقعة : ٦٣-٦٧ .

فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِّائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَإِنِّي تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْجَرْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْطُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانُ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أَكْطُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

(١) سورة البقرة ٢٦١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٦٥ .

(٣) سورة الأنعام : ٩٥ .

(٤) سورة الأنعام : ٩٩ .

(٥) سورة الأنعام : ١٤١ .

يَتَذَكَّرُونَ * وَمِثْلَ كَلِمَةِ خَيْثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ أَجْنُتُ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١﴾

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بَخَلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ إِنَّتِ الْكُلَّهَا وَلَآ تَقْلِمُ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ (٢)

﴿ وَهَزَيْتُمُ الْبَنَاتِ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ نُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِبًا ﴾ (٣)

﴿ وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلَّاسِكِينَ ﴾ (٤)

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٥)

﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ (٦)

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ

(١) سورة إبراهيم : ٢٤-٢٦ .

(٢) سورة الكهف : ٣٢ و٣٣ .

(٣) سورة مريم : ٢٥ .

(٤) سورة المؤمنون : ٢٠ .

(٥) سورة النور : ٣٥ .

(٦) سورة الصافات : ١٤٦ .

رُكْعًا مُجَدِّدًا يَتَغَوَّنَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ
 ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْهَهُ فَفَازَهُ فَاسْتَغْلَظَ
 فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجَبُ الزَّرَّاعُ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾ .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ
 شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبَبْنَا وَقَضَبًّا * وَزَيَّنَّا وَنَحَلًا * وَحَدَّائِقَ غُلَبًا * وَفَلَكَهًا
 وَأَبَا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ﴾ (٢) .
 ويقول رسول الله - ﷺ :

عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ : « إن من الشجر شجرة
 لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر
 البوادي . قال عبد الله : ووقع في نفسى أنها النخلة ، فاستحييت ثم قال :
 حدثنا ما هي يا رسول الله ؟ قال : هي النخلة » (٣) .

وهذا فيض من غيض .

وشكر هذه النعم يكون بإخراج حق الله فيها ممثلاً في الزكاة ، ومراعاة
 حد الاعتدال ، والبعد عن الإسراف .

(١) سورة الفتح : ٢٩

(٢) سورة عبس : ٢٤ - ٣٢ .

(٣) فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي .

٥ - الزمن :

والزمن فى الواقع الإيمانى عنصر بيئى هام ، فهو وعاء لكل الأحداث والتفاعلات ، فكما يحتاج الإنسان إلى مكان يأوى إليه فهو بحاجة إلى الزمن أيضاً، والزمن يشمل الأيام والليالى والشهور والأعوام والدهور ، ونظراً لأن الإنسان مهتم بالوقت لأهميته فقد وجدنا محاولات الإنسان مستمرة منذ فجر التاريخ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لقياس الوقت وتقديره ، ومن أجل هذا اخترعت المزاوِل والساعات الرملية والمائية والساعات التى نعرفها ، فضلاً عن الساعات الذرية التى يحاول الإنسان بواسطتها تقدير عمر الأرض ؛ لذلك رأينا القرآن الكريم يلفت أنظارنا ويوجه عقولنا ، إلى أهمية الوقت والزمن ، فيقسم بالزمن كله أو بأجزاء منه ، فيقول الله - تعالى - : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشِيرٍ ﴾ (١) ، ويقول : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكُفْرٍ ﴾ (٢) ويقول : ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ (٣) . ويقول : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (٤) . ويقول : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (٥) ويقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (٦) . ويقول : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصَرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّنَهُ

(١) سورة الفجر : ٢١ .

(٢) سورة العصر : ٢١ .

(٣) سورة الضحى : ٢١ .

(٤) سورة التكويد : ١٨ .

(٥) سورة النبأ : ١٠ و ١١ .

(٦) سورة الفرقان : ٦٢ .

تَفْصِيلاً ﴿١﴾

ويقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيراً ﴾ (٢). ويقول : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْسَرِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٣). فأيام الله هنا هي نعمه ، ولا شك أن لكل نعمة وقتاً وزماناً تظهر فيه ، فهو تذكير بقيمة الوقت أيضاً .

ويقول رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ » رواه البخارى عن ابن عباس .
ويقول أيضاً : « لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال :

عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل به ؟ » (٤) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ - : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (٥) .

فالإنسان مطالب بالسعى والجد والعمل الدءوب ، لما فيه خير نفسه وخير غيره ؛ لأنَّ عمره نعمة سيسأل عنها ، ويحاسب عليها ، بخلاف غير المؤمن ،

(١) سورة الإسراء : ١٢ .

(٢) سورة الفرقان : ٤٥ و ٤٦ .

(٣) سورة إبراهيم ، من الآية : ٥ .

(٤) انظر الخطابة وفنون القول الأخرى ص ١١٦ .

(٥) رواه البخارى

فإنه ينظر إلى الوقت وكأنه شيء فارغ عن المحتوى ، خال من المضمون ، فهو يعيش عمره طولا وعرضاً ساهياً لاهياً ، يُردّد قول الجاهلين : إن هي إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر . وعلى العاقل أن يكون في تقدم مطرد في فعل الخيرات ، ففي الحكمة : من استوى يوماء فهو مغبون ، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو مفتون ، ومن كان يومه خيراً من أمسه فهو المؤمن .

(ب) الشق المعنوي :

ويشمل هذا الجانب إرادة الخير أو الشر ، وما يترتب عليها من آثار بيئية حميدة ، أو عواقب وخيمة ، ولا يقل هذا الشق في أهميته عن سابقه ، فضلاً عن أنه بمثابة الضابط له والمهيمن عليه ، وتتولى العقيدة الصحيحة بعث ملكات الخير في النفس على حساب الحد من إرادة الشرور والعدوان على البيئة .

سادساً : مكونات البيئة بين الوفرة والندرة :

إن المؤمن على يقين تام ، واقتناع كامل ، بأن الله قد أمد هذا الكون بما يحتاج إليه البشر ، جيلاً بعد جيل ، وقبلاً بعد قبيل ، فضلاً عما يحتاج إليه سائر المخلوقات ، وما تصلح به حياتها ، وقد لفت القرآن أنظارنا إلى قضية الوفرة والندرة في قول الله تعالى :

﴿ قُلْ أَيْسُرُ لَكُمْ كُفْرُوكَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ إِندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي

أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلَّذِينَ هُمْ (١) .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴾ (٢) .

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٣) .

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا يَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤) .

وإذا كان المشركون الذين يعيشون في الأرض فساداً يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويتبنون قضايا ضالة ومُضلة ، لا تنطلي إلا على السُّدُج من الناس ، فبدلاً من أن ينسبوا الموارد وتدهورها إلى سفههم في الإنتاج والاستهلاك ، أضحوا ينسبون ذلك لزيادة السكان ، ويجعلون هذه القضية مُشجِّباً (شماعة) يعلقون عليها كل تصرفاتهم الخاطئة - فإننا لا نجد أبلغ في الرد عليهم من تلك النصوص القرآنية المضيئة ، كما نضيف إليها طائفة من أقوال بنى جلدتهم، لتدحض باطلهم وذلك على نحو مايلي :

١ - يقول «روبرت ألن» مسئول المنظمة الدولية للمحافظة على الطبيعة في جنيف :

« إننا نعلن للعالم أن الأرض يمكن أن تزود البشر بما يريدون ، ولكن بشرط مراعاة حدود معقولة لا تتجاوز حَدَّ الإسراف » .

(١) سورة فصلت : ١٠٩ .

(٢) سورة المرسلات : ٢٥ و ٢٦ .

(٣) سورة هود : ٦ .

(٤) سورة النكبات : ٦٠ .

إذاً فالإسراف والتبذير هما اللذان يبددان موارد البيئة ، ويجنيان أخطر
جناية على البشر ، وقد جعل الله المبذرين إخوان الشياطين .

٢ - من بين توصيات المؤتمر العالمى عن البيئة المحيطة الذى عُقد فى
«ستوكهولم» فى الفترة من ٥-١٦ من يونيو ١٩٧٢م والذى اشترك فيه
١٢٠٠ مندوب ينتمون إلى ١١٢ دولة ، بالإضافة إلى اشتراك ٣ آلاف
مراقب: « إن كل بلاد العالم الثالث تدرك أن مشكلاتها الأساسية ليست فى
تحديد المواليد ، وإنما هى مشكلات اقتصادية ، أى مشكلة نمو اقتصادى ،
واستشهدوا بعدد سكان الصين الذى بلغ ٧١٠ ملايين نسمة فى عام
١٩٧٠م ولكن هذا لم يمنعها من تحسين مستوى معيشتها ، وتحسين محيطها
البيئى ، وبناءً على هذا فلا بد من إعادة النظر فى طريقة معالجة الاقتصاد
العالمى ، ووضع أساس سليم للسياسة الاقتصادية الدولية ، والعلاقات التجارية ،
 وتنظيم الاستثمار» (١) .

٣ - يقول كبير مسئولى الأمم المتحدة :

« إنه إذا كان كثير من اللوم فى عدم المحافظة على مصادر الثروة يرجع
إلى وجود الأغنياء والفقراء ، عندئذ يجب أن نقول : إن الدول الغنية تتصرف
بصورة أنانية وقصيرة النظر ؛ فمساعدهاتها للدول الفقيرة لا تزيد على ٧.٠٪
من مجمل إنتاجها القومى ، وهى لا تقبل أى محاولات لأى إشراف دولى
على مصادر الثروة ، بل تفضل أن يظل الجميع أحراراً يتصرفون كما
يشاءون ، والدول الغنية تستهلك ثُلثَي الطاقة والغذاء فى العالم برغم أن
تعدادها لا يزيد على ثلث تعداد العالم ، وهذا النوع من الاستهلاك

(١) مجلة العربى ، عدد ٤٠٤ .

لا يمكن بالطبع أن يستمر» (١) .

فهم يقرون بكفاية الموارد شريطة البعد عن الإسراف ، كما يلصقون فساد البيئة بالأغنياء ، كما يدعون لوضع أساس سليم لسياسة اقتصادية دولية . ويرعون ساحة الزيادة السكانية من الضغط على الموارد ، وينعون على الأغنياء جعلهم أيديهم مغلولة إلى الأعناق ، وضنهم بما عندهم على الفقراء ، ونحن نوافقهم على ذلك ، وعلى أن معوناتهم سيّاط تلهب ظهور الفقراء ، فهي لا تسمّن ولا تغني من جوع .

سابعاً : الحكمة من خلق البيئة ومكوناتها :

لا يخلو خلق الله - تعالى - أى شئ من حكمة ، ونود أن نتعرف على معنى الحكمة قبل بيان أنواعها ليكون أعون على البحث عنها والاستفادة منها .
* معنى الحكمة :

- للحكمة معانٍ كثيرة ، وللعلماء فيها كلام مستفيض نختزئ منه بما يلي :
- ١ - ذهب ابن عباس إلى أن الحكمة المقصودة فى قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢) تعنى القرآن والفهم فيه .
 - ٢ - قال مجاهد : هى القرآن والعلم والفقه .
 - ٣ - قال أبو مالك : هى السنة .

٤ - وقيل : هى العلم النافع المؤدى إلى العمل الصالح .

وهذا المعنى الأخير للحكمة - على إجماله - يتفق مع ما نهدف إليه ، فالحكمة ضالة المؤمن ، فإذا وجدها فهو أولى الناس بها ، ونحن حينما نعملُ

(١) الأهرام ص ٥ بتاريخ ١٦/٣/١٩٩٠م

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ٢٦٩ .

الفكر ، ونُجِّلُ النظر في مكونات البيئة ومقدراتها ، فإننا بهذا إنما نحاول الوصول إلى العلم النافع بخصوصها ، فكل جزء يسير منها إنما هو نعمة عظمى لله ، والوقوف على هذا المعنى يدفعنا قطعاً إلى العمل الصالح الذي يقربنا إلى الله .

* وتتلخص الحكمة من خلق مكونات البيئة فيما يلي :

١ - إنها مخلوقة لبنى آدم ومسخرة لهم ومُذَلَّلَةٌ ، ويقول الله - تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) . وقال ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٢) .

٢ - إنها آيات دالة على قدرة الله - تعالى - يقول جل شأنه : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيِّدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

٣ - مجال خصب للتذكير بالله ، والتفكير في عظيم صنعه :

إن صفحة هذا الكون هي كتاب الله المنظور ، كما أن القرآن الكريم هو كتابه المسطور ، فالكون من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة يشتمل على حشد هائل من مظاهر قدرة الله - تعالى - ، ونستطيع إدراك تلك الأسرار عن طريق التفكير الواعي ، والنظر العميق إلى ما أودعه الله فيها من التقدير والتدبير ،

(١) سورة البقرة : ٢٩ .

(٢) سورة الملك : ١٥ .

(٣) سورة الذاريات : ٤٧ - ٤٩ .

فضلاً عما نراه فيها من التسخير والتسيير ، يتضح لنا ذلك جلياً من خلال النصوص التالية : يقول الله - تعالى :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِيَ الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١) . ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَىٰ فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢) .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَخَوَّلَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۚ وَخَوَّلَكُمْ الْأَنْهَارَ * وَخَوَّلَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ ۖ وَخَوَّلَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣) .

﴿وَعَلَّمَنَّا ۖ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٤) .

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (٥) .

(١) سورة آل عمران : ١٩٠ و ١٩١ .

(٢) سورة البقرة : ١٦٤ .

(٣) سورة إبراهيم : ٣٢ - ٣٤ .

(٤) سورة النحل : ١٦ .

(٥) سورة الطارق : ٥ - ٧ .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا
الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبْنَا وَقُضًّا * وَزَيَّنَّاهَا أَنْهَارًا * وَحَدَّاثًا يَرَوْنَ
غُلْبًا * وَفَكَهَّةً أَبًّا * مُتَعًا لَكُمْ وَلَآئِعًا لَكُمْ ۚ ﴾ (١) .
﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۚ ﴾ (٢) .

وقد قال رسول الله - ﷺ :

« تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى الله ، فإنكم لن تقدروا
قدره » (٣) .

ثامناً : تأثير البيئة على الإنسان بين الجبر والاختيار :

نظراً لما للبيئة الجغرافية من مقومات ، وما تتعرض له من عوامل ، وما
تمتاز به من تضاريس ، فإنها تصوغ حياة الإنسان وتشكلها فى الغالب الأعم
منها ، إلى الحد الذى رأينا فيه اتفاقاً فى رأى بين التربويين والاجتماعيين
والطبيين ، على أن الإنسان ابن بيئته الطبيعية والاجتماعية والثقافية ، وأنه
كما يتأثر بها يؤثر فيها ، وهو ما يعبر عنه بمفهوم : «التناضح البيئى» أى
التفاعل المتبادل بين الإنسان والبيئة .

(١) سورة عبس : ٢٤ - ٣٢ .

(٢) سورة الذاريات : ٢١ .

(٣) رواه أبو نعيم عن ابن عباس .

وقد بالغ البعض فى تقدير الدور الذى تؤثر به البيئة على الإنسان إلى الحد الذى جعله يتسم بطابع الجبر ، أى أن البيئة مجبولة على التأثير فى الإنسان بهذه الصورة ، ولاستطيع من ذلك فكاكاً ، وكذلك الإنسان لا اختيار له فى شىء من نظم حياته العامة ، ومن هذا الفريق بعض علماء الاجتماع ، ونذكر منهم على سبيل المثال :

* أرسطو :

يقول : « إن تقسيم الناس إلى سادة وعبيد أمر ليس فيه شىء من الظلم أو القسوة ؛ لأنه نظام فطرى أرادته الطبيعة ، وأمرت باتباعه ، فأنشأت فى البلاد الحارة كآسيا قوماً كسالى لا يصلحون إلا أن يكونوا عبيداً ، وأما فى البلاد المعتدلة كأفريقيا فتجد قوماً نشطاء مجدين هم سادة بطبيعتهم لا بالاتفاق »^(١)

* ابن خلدون :

ومن عجب أن يذهب المفكر الإسلامى وعالم الاجتماع عبد الرحمن ابن خلدون إلى رأى هو الجبر بعينه ، حيث ذهب فى مقدمته إلى القول بأن النبوات إنما توجد فى المناطق الأكثر اعتدالاً ، ولم يقف على خبر بعثة نبي فى الأقاليم الشمالية أو الجنوبية ؛ وذلك لأن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع الإنسانى فى خلقهم وأخلاقهم ، قال الله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾^(٢) ، وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله ، وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال فيهم ، فنجدهم على غاية فى التوسط فى مساكنهم وأقوالهم وصفاتهم .

(١) انظر: الإسلام والبيئة ص ٣٠ .

(٢) سورة آل عمران : جزء من الآية ١١٠ .

والحق أن فى الأخذ بهذا الرأى افتيتانا على حرية الإنسان، وتعطيلا لعالمية رسالته - ﷺ - وخطا لجميع الأوراق ، قاله قد خلق آدم على صورة جميلة ، وكذلك بنوه الذين انتشروا فى الأرض يعمرونها من بعده ، والبيئة لا تؤثر فى الإنسان إلا بقدر مافيه من قوانين تؤثر على لغته ولونه، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتَكُمْ وَالْوَنَاصِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١) ، مع وجود القدرة على تعمير الأرض ، ومن ثم يسقط كل زعم لتمييز إنسان على إنسان بسبب اللون أو الجنس أو أى سبب آخر يفرضه فكر بشرى قاصر ، والإنسان يسير فى الحياة على هدى من توجيه غريزته وعقله فى ضوء توجيه عقيدته الدينية الصحيحة التى تحفظ عليه توازنه ، فتضبط إيقاع غريزته فى هدى عقله ، وهذا فرق مابين الإنسان والحيوان الذى يتحرك فى الحياة بدافع من غريزته فقط ، وهذا دليل على جبر الحيوان وتسخير له لبنى الإنسان .

ولا ينفى كل هذا ارتباط الإنسان ببيئته ، وحبها لها ، واستحسانه لمكوناتها، بل وتفضيلها على غيرها ، فذلك أمر إنما يَصَارُ إليه بحكم الإلف والعادة ، فقد رأينا رسول الله - ﷺ - يقف على مشارف مكة يوم الهجرة قائلا: « اللهم إني أحب البلاد إلى الله ، وأحب البلاد إلى ، ولولا أن قومك أخرجنى منك ماخرجت » (٢) .

ولقد امتنع عن أكل الضَّبَّ حين قدم إليه ، فظن بعض الحاضرين أنه مُحَرَّمٌ ، فقال : « لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه » .

(١) سورة الروم : ٢٢ .

(٢) انظر سيرة النبی لابن هشام .

ومع هذا الارتباط القوى ، فإن الإسلام يجعل أمر الارتحال من بيئة إلى أخرى شيئاً مشروعاً إذا ضاقت سبل العيش في بيئة الإنسان وموطنه ، فينعي الإسلام على المستضعفين رضوخهم لمعيشة الذل والهوان ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ (١) ، أو إذا ضيق عليه في دينه ، وهجرة الأنبياء خير شاهد على ذلك .

ولعل من الحكم المستخلصة من مشروعية الحج أن يكسر الإنسان حدة الرتبة والإقامة في البيئة إلى السباحة الدينية ، حيث يوطن النفس على الاستعداد ليوم الرحيل الأكبر .

تاسعاً : المنهج الإيماني في استغلال مكونات البيئة والتعايش السلمي معها :

نصل الآن بك - أخي القارئ - إلى لب هذا الموضوع وثمرته ، وجوهره وغايته ، نصل بك إلى المنهج الصحيح الذي وضعه الله لعباده المؤمنين لكي يحسنوا استغلال بيئتهم الجغرافية ، ويتعايشوا معها سلمياً ؛ لكي يجنوا من وراء ذلك أطيب الثمرات ، وذلك - بطبيعة الحال - متوقف على سيادة المنهج الإصلاحى فى شتى البقاع ومختلف النواحي والأصقاع ، ويطيب لنا أن يكون حديثنا عن هذا المنهج على النحو التالى :

(أ) بين يدى هذا المنهج :

إن المنهج الإيماني فى التعايش السلمى مع البيئة منهج شامل ، فهو كل لا يتجزأ ، ووحدة متماسكة لا تنقسم عراها ، وهو طوق نجاة البشرية الوحيد ،

(١) سورة النساء ، من الآية : ٩٧ .

ففى ظله يعمل الإنسان للذنيا والآخرة ، ويسمو تعاليمه تنتظم علاقة العبد بربه وبإخوانه وبسائر المخلوقات ، فالإنسان الذى سقى الكلب ورحمه أدخله الله الجنة ، والمرأة الذى عذبت القطاة أدخلها الله النار ، فالإسلام ينمى حوافز الفرد ، ويدفعه للعمل النافع والإبداع ، وفى تحسين العمل وتجويده تحصيل لمرضاة الله وحسن ثوابه ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) ويقول رسول الله - ﷺ : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

كما يضع الإسلام لكل تصرف ضوابطه وقبوده التى تحمى من طغيانه وجموحه ، وفى الحديث : « نعم المال الصالح للعبد الصالح » وفى نماء ثروة الأفراد ونقائها نماء لثروة الأمة ، ونفع لأبناء الوطن كافة ؛ ولهذا فقد حرم الإسلام الإسراف والتبذير ، وجعل المبذرين إخوان الشياطين ، كما حرم الترف الذى يقسم الشعوب إلى أقليات ناعمة مُترهلة عاطلة ، وأكثرية مطحونة محرومة متطلعة .

ومن المفيد لنا فى هذا الصدد أن نضع تلك الملاحظات بين يدي هذا المنهج :

١ - التراث الإسلامى غنى وحافل ببرامج الإصلاح البيئى :

من الضرورى عندما نبحث عن الحلول العملية لقضايانا أو مشكلاتنا أن نلجأ إلى تراثنا وموروثاتنا الثقافية والدينية ، عندئذ سنجد فيها بتوفيق الله المؤشرات الصحيحة ، فضلاً عن التوصل إلى الحلول المثلى ، ثم لا مانع بعد

(١) سورة التوبة ، من الآية : ١٢٠ .

ذلك من الاستفادة بخبرات الآخرين وتجاربهم مع توظيفها طبقاً لمتطلباتنا واحتياجاتنا ، فتلك هي البداية الصحيحة ، والمنهج الأمثل فى التفكير والتصدى للمشكلات ، ولكن الذى يحدث شىء آخر ، شىء على عكس ذلك تماماً ، فإننا نلجأ فى هذه المواطن - انطلاقاً من عقدة الخواجه - إلى الغرب أو الشرق نستطلع آراءهم ، ونقلب أحداقنا فى بطون أوراقهم ، ثم لا نلبث أن ننقل عنهم نقلاً آلياً ، ونأخذ عنهم مباشرة بدون تعديل أو تغيير ، ضاربين صفحاً عن مدى مطابقة هذه التقنيات المستوردة لحالاتنا الخاصة ، فضلاً عن مناسبتها لبيئتنا ، وموافقتها لعاداتنا وتقاليدينا .

٢ - البيئة للجميع :

إن موارد البيئة هى من أجل نعم الله على بنى البشر ، وإن الله قد أعطانا جميعاً حق الانتفاع بها ، فلا يحق لطائفة الاستئثار بها دون غيرها .

٣ - الإنسان وصى على البيئة لا مالك لها :

إن الإنسان خليفة عن الله فى ملكه ، ووصى على البيئة وليس مالكا لها ، فعليه من هذا المنطلق أن يأخذ منها بقدر البلاغ ، مع أداء حق هذه النعمة وشكرها ، بالمحافظة عليها ، وبإعطاء حق الله فيها للمحتاجين ، فشكر النعمة عامل من عوامل استدامتها ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (١) .

وكفران النعمة مدعاة لزوالها . ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ

(١) سورة إبراهيم ، من الآية : ٧ .

الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١﴾ .

٤ - أمانة الحفاظ على البيئة جزء من عقيدة المؤمن :

إن المحافظة على مكونات البيئة جزء من عقيدة المؤمن ، قال ﷺ :
«الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول : لا إله إلا الله ،
وأدناها إماطة الأذى عن طريق » (٢) ويقول - ﷺ : « الطهور شطر الإيمان » .
كما أنه يدخل فى نطاق أعمال البر ، عن أبي ذر قال : قال رسول الله -
ﷺ : « عُرِضَتْ عَلَى أَعْمَالِ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا ، فَوُجِدَتْ فِي مَحَاسِنِ
أَعْمَالِهَا الْأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ ، وَوُجِدَتْ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النِّخَامَةُ تَكُونُ
فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ » (٣) . ويشمل ذلك كل أذى يُزال عن طريق المسلمين
ومستقراتهم .

يجب علينا أن نتعامل مع البيئة من منطلق القواعد الفقهية الأصولية

العامة :

مثل : درء المفسد مَقْدُمٌ على جلب المصالح . و«لا ضرر ولا ضرار» (٤)
و « التَّخْلِيَةُ تَسْبِقُ التَّحْلِيَةَ » .

(١) سورة النحل : ١١٢ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه مسلم (٥٥٣) .

(٤) رواه ابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى .

(ب) أسس هذا المنهج :

إن المنهج الإيماني لاستغلال مكونات البيئة الطبيعية منهج واضح يقوم على أسس دقيقة ، ومبادئ سليمة ، ونستطيع أن نُلَمِّحَ إلى بعضها فيما يلي :

١ - إحكام التدبير مع دقة التقدير :

إن المتتبع لآيات القرآن يراها تجلّى لنا هذه الحقيقة ، فهذا الكون الذي نعيش فيه ، من فرشه إلى عرشه ، محكم تمام الإحكام ، فضلاً عن تشييده على علم ، ولولا ذلك ما استقرّ ولا استمرّ ، فلنطالع معاً تلك النصوص المضيفة : يقول الله تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا مِنْ فُتُوحٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةٌ وَدُكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ أَنْخَرُوجُ ﴾ (٢) .

وقد أقسم الله - تعالى - بهذه الأجرام لضخامة خلقها في مواضع شتى في القرآن الكريم ، ونحن نورد جانباً من هذه النصوص فيما يلي :

(١) سورة الذاريات : ٤٧ - ٤٩ .

(٢) سورة ق : ٦ - ١١ .

يقول الله تعالى :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (١)
﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ * وَمَا لَا تُبْصَرُونَ ﴾ (٢) .
﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

كما إن دقة الصنع مقرونة بالبهجة والجودة والكرم ، يقول الله تعالى :
﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزِينَةً لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِئَةٍ مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَزَاقِينَ * وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (٤) .

ويقول : ﴿ ... وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٥) .

ونحن مأمورون بتدبر كل هذا ، لارتباطنا بالأرض ارتباطاً قوياً ، ففيها مستقرنا ، ومنها منشؤنا ، وإليها مرجعنا ، ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾

(١) سورة الواقعة : ٧٥ و٧٦

(٢) سورة الحاقة : ٣٨ و٣٩ .

(٣) سورة غافر : ٥٧ .

(٤) سورة الحجر : ١٦ - ٢٢ .

(٥) سورة الحج : آخر الآية : ٥ .

وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿١﴾ ، منها خلقناكم للعمل والاكتساب ،
 وفيها نعيدكم للدود والتراب ، ومنها نخرجكم للعرض والحساب .
 ويقول الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا
 وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا
 فِجَاجًا﴾ (٢) .

كما أن في السماء تقدير أرزاقنا ، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا
 تُوعَدُونَ﴾ (٣) .

وتلفتنا هذه النصوص إلى أن هذا الكون بأسره قائم على العدل والحق ،
 فإذا استقام الناس على ذلك استقامت لهم الحياة ، وإذا تنكبوا هذا الطريق ظهر
 الفساد في البيئة براً وبحراً وجواً .

٢ - كف الأذى مبدأ إيماني هام :

لقد جاء الإسلام بقواعد سامية لإرساء مبدأ كف الأذى ودفعه ، سواء
 في الجانب المادى أو المعنوى ، فحرم بعض الأطعمة وجعلها نجسة العين لما
 تحمله في طياتها من أذى للإنسان إذا أقدم على أكلها ، يقول الله تعالى :
 ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا
 مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (٤) .
 ويقول : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ (٥) ، كما حرم

(١) سورة طه : ٥٥ .

(٢) سورة نوح : ١٧ - ٢٠ .

(٣) سورة الذاريات : ٢٢ .

(٤) سورة الأنعام ، من الآية : ١٤٥ .

(٥) سورة المائدة ، من الآية : ٣ .

سُور (بقية ماء الشرب) الكلب والخنزير وجعله نجساً نجاسة مغلظة ، كما يطلب من الإنسان أن يتنزّه عن البول والغائط حتى لا يعلق بجسمه شيء منهما ، وكذلك ما يخرج من بدن الإنسان كالدّم والقريح والصدّيد وخلافه .

ومن المقومات البيئية التي وجه الإسلام أتباعه إلى كف الأذى عنها مايلي :

* الماء : فقد حرص الإسلام على نظافة الماء وطهارته ، والبعد عن تلويث المياه ولوطريق الخطأ ، أو بطريق غير مباشر ، فقال النبي - ﷺ : « إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً فإنه لا يدري أين باتت يده » (١) . وقال أبو هريرة : قال رسول الله - ﷺ : « لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه » (٢) . وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب ، فقال أبو السائب - راوى الحديث : كيف يغتسل يا أبا هريرة ؟ قال : يتناوله تناولاً » (٣) .

* الطريق والظل : يقول رسول الله - ﷺ : « اتقوا اللّاعنين (أى ما يوجب لعنة الناس) ، قالوا وما اللاعنان ؟ قال : الذى يتخلّى (يقضى حاجته من بول أو غائط) فى طريق الناس وظلّهم » (٤) ويقول أيضاً « اتقوا الملاعن الثلاثة : البراز فى الموارد ، وقارعة الطريق ، والظل » (٥) .

(١) رواه مسلم

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه أبو داود وابن ماجه .

« نهى رسول الله أن يبال في الماء الراكد » (١) .

ومن وسائل تطهير النجاسات مايلي :

* صب الماء على النجاسة ذات الجرم لقلع عينها :

فعن أبي هريرة قال : « قدم أعرابي فبال في المسجد ، فقام إليه الناس ليوقعوا به ، فقال النبي - ﷺ : دعوه ، وفي رواية : لا تقطعوا على الرجل بوله ، فبال ، فلما قضى حاجته قال النبي : « أريقوا على بوله سجلاً من الماء (أى دلواً من الماء) فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » (٢) * جفافها وتحولها تراباً :

قالت عائشة - رضی اللہ عنہا : « زكاة الأرض بيسها » .

مع مراعاة أنه يجوز الصلاة عليها دون التيمم منها .

* دبغ الجلود :

تطهر الجلود إذا سلخت ودُبِغَتْ بالتراب أو الملح أو القرظ (قشر الرمان) وهو مادة قابضة تزيل عفونات الجلود ويحل الانتفاع بها ، سواء أكانت لحيوان مأكول اللحم ، ذُكِّيْ أَوْ لَمْ يُذَكَّ ، أو غير مأكول كالحمُر والخيل ، لحديث : «أيما إهاب دبغ فقد طهر» (٣) ، وكما في معنى حديث أحمد ، أن رسول الله - ﷺ - مرَّ على شاة ميتة لميمونة فقال : « هَلَّا أَخَذْتُمْ إهابها (جلدها) فدبغتموه فانتفعتم به فإنه زكاته » .

(١) رواه مسلم .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه مسلم .

وقد أكد العلم الحديث خطورة تلويث الموارد المائية والظلل والطرق من حيث نقل الأمراض الطفيلية المتوطنة وغيرها كالبلهارسيا والإنكلستوما وكثير من الديدان الدبوسية والدوسنتاريا ، وما ينسحب على هذه الملوثات ينسحب على غيرها من الملوثات البيئية الحديثة ذلك لأنها لم تكن موجودة على عهد رسول الله - ﷺ - وقد اتضح لنا أيضاً أن رسول الله - ﷺ - لعنايته بنظافة البيئة وصحتها يُعَدُّ الواضع الأول لقواعد الصحة الوقائية فى إطار من الإعجاز العلمى لم تتكشف للناس طياته إلا بعد ١٤ قرناً من الزمان ، ولكن المسلمين الأوائل استفادوا به ؛ لأن منهمجهم قد تمثل فى قول الله تعالى ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ .

٣ - التوسط فى مرافق الحياة :

لقد وردت النصوص الكثيرة (قرآناً وسنة) تدعو إلى التوسط والاعتدال فى مرافق الحياة مع إباحتها ، وذلك لقلّة شأنها واستصغار أمرها ، وحتى لا يركن الإنسان إليها فتغريه وتلهيه عن العمل للآخرة التى هى خير وأبقى ، يقول الله تعالى ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتْنٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (١) ، ويقول : ﴿قُلْ مَتْنُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٢) ، وفى الحديث الشريف الذى رواه سهل بن سعد : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها جرعة ماء» (٣) .

(١) سورة غافر : ٣٩ .

(٢) سورة النساء ، من الآية : ٧٧ .

(٣) رواه الترمذى .

ويقول الله تعالى : ﴿ يَبْنِيْٓ ءَادَمَ حُذُوًا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴾ (١) ، ويقول : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتٰكَ اللّٰهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللّٰهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِيْنَ ﴾ (٢) .

* توضيح للنصوص الواردة في ذم الدنيا :

وردت بعض النصوص في ذم الدنيا ، ويرى أهل العلم بخصوصها أن الذم الوارد فيها لا ينصب على زمانها من ليل ونهار ، فإن الله جعلهما خلفاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ، كما لا ينصب على مكانها وهو الأرض ، ولا ينصرف إلى ما أودعه الله فيها من الجبال والبحار والأنهار والمعادن والرياح والأمطار ، ولا إلى ما أنبت فيها من زرع وشجر ، ولا إلى ما بث فيها من دابة ، فكل ذلك من نعم الله على عباده ، وإنما ينصب ذلك الذم وينصرف إلى أفعال بنى آدم وممارساتهم الواقعة في الدنيا ؛ لأن غالب هذه الأفعال واقع على غير الوجه الذي تحمد عاقبته ، يقول الله تعالى :

﴿ اَعْلَمُوْٓا۟ اَنَّهَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَّهْوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْاَمْوَالِ وَالْاَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ اَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرٰهُ مُضْفَرًا ﴾ (٣) .

(١) سورة الأعراف : ٣١ .

(٢) سورة القصص : ٧٧ .

(٣) سورة الحديد ، من الآية : ٢٠ .

والناس بالنسبة للدنيا فريقان :

الكفار :

وقد لخص الله موقفهم من متاع الدنيا بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (١) ، فهم يعكفون على الدنيا بنهم ، ويعبئون من خيراتها بشرافة ، حتى إنهم يشبهون الأنعام التي لا تتقيد بقيود ، ولا تحدها حدود ، فالدنيا في نظرهم كل شيء ، فلا بعث ولا نشور ، ولا حساب ولا عقاب ، لسان حالهم يقول : إن هي إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وما نحن بمبعوثين .

المؤمنون :

وهؤلاء بدورهم منقسمون إلى ثلاث مراتب :

(أ) ظالم لنفسه : وهم الأكثرون ، فهم الذين أخذوا زهرة الحياة الدنيا وزينتها من غير وجهها المشروع ، واستعملوها في غير وجهها أيضاً ، فبدلاً من أن يصرفوها في وجوه البر والخير ، بددوها في أماكن اللهو والزينة والتفاخر ، فهم في حقيقة أمرها . الأمر لا يعرفون المقصود من الدنيا ، ولم يفهموا حقيقة أمرها .

(ب) المقتصد : وهو الذي يأخذ الدنيا من وجوهها المباحة ، ويؤدي واجباتها ، ويمسك لنفسه الزائد على الواجب ، يتوسع به في التمتع بشهوات الدنيا ، ولا عقاب عليه في ذلك ، إلا أنه ينقص من درجاته في الآخرة بقدر توسعه في الدنيا ، وفي ذلك يقول الفضيل بن عياض : « إن شئت استقل من الدنيا ، وإن شئت استكثر منها ، فإنما تأخذ من كيسك » (٢) .

٢- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي .

(١) سورة محمد : ١٣ .

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي

(جـ) السابق باخيرات بإذن الله :

وهم الذين فهموا المراد من الدنيا ، وعملوا بمقتضى ذلك ، فاكثفوا منها بما يكتفى به المسافر فى سفره ، ولا بأس بأن يتناول بعض الشهوات المباحة ؛ ليتقوى بها على الطاعة ، ولينشط للعمل ، يقول النبى - ﷺ : « إنما يكفى أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب » ويقول : « مالى وللدنيا ، وإنما مثلى ومثل الدنيا كراكب قال تحت شجرة ثم راح وتركها » ، وهؤلاء قد فهموا الزهد فى الدنيا بالمعنى الذى أرادته رسول الله ، فعن أبى ذر قال : قال رسول الله - ﷺ : « الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة فى الدنيا ألا تكون بما فى يديك أوثق بما فى يد الله ، وأن تكون المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك » فهم الذين أخذوا من الدنيا بقدر البلاغ وأحسنوا .

١ - العمل الدائم والسعى الدائب :

إن الإنسان فى ظل الإسلام مطالب بأن يعمر الحياة بالعمل النافع المفيد ، وأن يسعى فيها سعياً حثيثاً ، واضعاً فى حسبانته أنه مجزى بهذا العمل ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فُتْلَقِيهِ ﴾ (١) ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) ، فإذا كان الله قد ضمن أرزاق خلقه فقال : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا

(١) سورة الانشقاق : ٦ .

(٢) سورة التوبة : ١٠٥ .

عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ ، فقد اقتضت حكمته ألا تنال هذه الأرزاق التي ضمنها ، والمعاش التي يسرها إلا بالجهد والعمل ، يقول الله تعالى : ﴿ فَاَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ » وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿٢﴾ ويقول : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۚ ﴾ (٣) ويقول : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَتَكُنْ لِأَرْضِ اللَّهِ يَتَنَصَّرُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۚ ﴾ (٤) .

وقد حث رسول الله - ﷺ - الأمة على العمل فقال . « التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء » (٥)

* « مامن مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » (٦)

* « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » (٧)

* عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من بات كالأمان من طلب الحلال بات مغفوراً له » (٨) .

(١) سورة هود : ٦ .

(٢) سورة الملك ، من الآية : ١٥ .

(٣) سورة الجمعة ، من الآية : ١٠ .

(٤) سورة المزمل ، من الآية : ٢٠ .

(٥) رواه الترمذى والحاكم بإسناد حسن .

(٦) رواه البخارى

(٧) رواه البخارى .

(٨) رواه ابن عساكر .

* عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ : « من أَمَسَ كَإِلَافٍ مِنْ يَدَيْهِ أَمَسَ مَغْفُوراً لَهُ » (١)

* عن الزبير بن العوام أن النبي - ﷺ قال : « لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحِزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكْفُ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَنْ يُعْطَوْهُ أَوْ يَمْنَعُوهُ » (٢)

* ويقول رسول الله - ﷺ : « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا وَرَعَى الْغَنَمَ . قَالُوا : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، كُنْتُ أُرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطٍ لِأَهْلِ مَكَّةَ » (٣) .
* وذكر الحاكم من حديث ابن عباس « أَنَّ دَاوُدَ كَانَ زَرَّاداً (يَصْنَعُ الزَّرْدَ وَالِدُرُوعَ مِنَ الْحَدِيدِ) ، وَكَانَ آدَمُ حَرَّاثًا وَكَانَ نُوحٌ نَجَّارًا ، وَكَانَ إِدْرِيسُ خِيَّاطًا ، وَكَانَ مُوسَى رَاعِيًا » .

* عن أبي هريرة قال : قلل رسول الله - ﷺ : « لَأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ لِيَتَصَدَّقَ بِهِ ، وَلِيَسْتَغْنِيَ عَنِ النَّاسِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا أَنْ يُعْطَاهُ أَوْ يَمْنَعَهُ ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى » (٤) .

ويروى الصوفية أن أحد الصالحين ، واسمه شقيق البلخي ، ذهب في رحلة تجارية يضرب في الأرض ويستغنى من فضل الله ، وقبل سفره ودّع صديقه الزاهد المعروف إبراهيم بن أدهم ، الذي توقع أن يمكث في رحلته مدة طويلة ، ولكن لم تمض إلا أيام قلائل حتى عاد شقيق ورآه إبراهيم

(١) رواه الطبراني .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه البخاري .

(٤) رواه مسلم .

فى المسجد ، فقال متعجباً : مالذى عجل بعودتك ؟ قال شقيق : رأيت فى سفرى عجباً ، فعدلت عن الرحلة ، وذلك أنى أويت إلى بيت خرب لأستريح فيه ، فوجدت به طائراً كسيحاً أعمى ، فعجبت وقلت فى نفسى : كيف يعيش هذا الطائر فى هذا المكان النائى وهولا يبصر ولا يتحرك ؟ ولم ألبث إلا قليلاً حتى أقبل طائر آخر يحمل له الطعام فى اليوم عدة مرات حتى يكتفى ، فقلت : إن الذى رزق هذا الطير فى هذا المكان قادر على أن يرزقنى ، وعدت من ساعتى .

فقال إبراهيم : عجباً لك يا شقيق ، ولماذا رضيت لنفسك أن تكون الطائر الأعمى الكسيح الذى يعيش على معونة غيره ، ولم ترض لها أن تكون الطائر الآخر الذى يسعى على نفسه وعلى غيره من العميان والمقعدين ؟ أما علمت أن اليد العليا خير من اليد السفلى ؟ فقام شقيق إلى إبراهيم وقبل يده وقال : أنت أستاذنا يا أبا إسحاق وعاد إلى تجارته .^(١)

* خطة عمل متواضعة لمواجهة الفقر والحاجة :

روى أصحاب السنن عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رجلاً من الأنصار أتى النبى - ﷺ - فقال : أما فى بيتك شىء ؟ قال : بلى ، جلس (كساء) نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقعب (إناء خشب) نشرب فيه الماء .

قال : اثنتى بهما . فأتاه بهما ، فأخذهما رسول الله وقال : من يشتري هذين ؟

فقال رجل : أنا أخذهما بدرهم .

(١) انظر مشكلة الفقر وكيف عالجه الإسلام . د . القرضاوى ص ٣٩ . مكتبة وهبة .

قال : من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثاً .

قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين .

فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين ، وأعطاهما الأنصارى ، وقال له :

« اشتر بأحدهما طعاماً وانبذه إلى أهللك ، واشترِ بالآخر قدوماً فأُتِنِي به ، فشَد فيه رسول الله - ﷺ - عوداً بيده ثم قال له : اذهب فاحتطب وبع ، ولا أرينك خمسة عشر يوماً » .

فذهب الرجل يحتطب ويبيع ، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً ، وببعضها طعاماً ، فقال رسول الله : « هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة ؟ إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة : لذي فقر مدقع (شديد) أولذى غُرم مُفْطَع ، أولذى دم موجع (باهظ) » .

فهذا الحديث يعالج مشكلة السائل المحتاج بالمعونة الوقتية المادية ، ولم يعالجها بالوعظ المجرد أو التنفير من المسألة ، فقد أخذ بيده في حل مشكلة أَلَمَتْ به وجاء يشكو منها ، يوجهه كي يحلها بنفسه وبطريقة ناجحة (١) .. هذا ولا تتعارض دعوة الإسلام للعمل مع دعوته للتوكل ، فالتوكل لا ينافي اتخاذ الأسباب ، فشعار المؤمن التوكل في الحياة ، يقول رسول الله - ﷺ - : « اعقلها وتوكل » (٢) ، وكما يقولون : ابذر الحب وارج الثمر من الرب .

(١) المرجع السابق ص ٥٠

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه .

* صور من العمل البيئي النافع :

١ - استزراع الأرض :

لقد حث الإسلام على الاستزراع والاستصلاح ، حتى ولو فى آخر لحظات العمر ، يقول رسول الله - ﷺ - : «إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها» (١) .

ويقول أيضاً : «من كانت له أرض فليزرعها فإن لم يزرعها فليزرعها أخاه» (٢) ولقد فهم الصحابة مغزى هذا التوجيه الكريم ، وطبقوه فى حياتهم العملية بكل إخلاص طمعاً فى ثواب الله ، وعمارة للأرض ، ورخاء للإنسانية ، فقد غرس الصحابيُّ أبو الدرداء شجرة جوز ، وهوشيع طاعن فى السن ، فسأله أحدهم : أتغرس هذه الجوزة وأنت شيخ كبير وهى لا تثمر إلا بعد كذا وكذا من السنين ؟ فأجابه أبو الدرداء : وماذا على أن يكون لى ثوابها ولغيرى ثمرتها ؟ :

وكان شعارهم : غرس لنا من قبلنا فأكلنا ، ونحن نغرس لىأكل من بعدنا .

وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من أحيا أرضاً ميتة فهى له» (٣) ، ويقول عمر بن الخطاب - رضى الله عنه : «لا تهتكوا وجه الأرض فإن شحمتها فى وجهها» ، وفى هذا إشارة إلى عدم

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أحمد والترمذى .

تجريف الأرض الزراعية ؛ لأن أخذ الطبقة السطحية ضار بالتربة ومُجهِّد لها .

وقد حفلت السنة بالأحاديث الصحيحة التي تحضُّ على الزرع والغرس ونحن نجتزئ منها بهذا الحديث ، يقول رسول الله - ﷺ : «مَآمِنَ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعَ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَلَا يَرْزُؤُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ» (١) .

٢ - الرِّضَا بما قسم الله :

الرضا بما قسم الله أسلوب قيم من أساليب تعلُّم القناعة ، وهو وسيلة لشكر المنعم على ما أنعم ، فالإنسان على أى حال فاضل ومفضول ، سواء أكان ذلك فى أمور الدنيا أو أمور الدين ، فعلى العاقل أن ينظر فى أمور الدنيا إلى من هو أسفل منه (صاحب الحظ القليل) ، وينظر فى أمور الدين ومكارم الأخلاق إلى من فوقه (صاحب الحظ الكبير) ، بل إن ذلك يعتبر واجباً عليه ؛ لأنه تنافس فى الخير وتسابق إلى الرفعة والرقى ، وفى الحديث : «رحم الله عبداً نظراً فى دنياه إلى من هو دونه فحمد الله وشكره ، ونظر فى دينه لمن فوقه فجدَّ واجتهد» .

وهذه طائفة من النصوص التى توضح لنا هذا المعنى :

* يقول الله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَمْتُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (٢) .

(١) رواه المسلم .

(٢) سورة النساء ، من الآية : ٣٢ .

* ويقول : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَتْهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾ (١) .

وقد فسر الإمام على الحياة الطيبة بالقناعة .

* عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : « انظروا إلى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْكُمْ ، ولا تنظروا إلى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ ، فهو أَجْدَرُ أَلَّا تَزِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم ، وفى رواية البخارى : « إذا نظر أحدكم إلى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فى الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ » .

* وعنه ، عن النبى - ﷺ - قال : « تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالْدَّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيسَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ » (٢) .

* وعنه أن رسول الله - ﷺ - قال : « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » (٣) .

٣ - الترشيده :

من المبادئ الأساسية الهامة التى يركز عليها المنهج الإيمانى فى استغلال مكونات البيئة والتعايش السلمى معها مبدأ الترشيده؛ فالترشيده للمسلم أسلوب حياة ، وليس ظاهرة مؤقتة ، ولا شعاراً يرفع عند حلول الأزمات المادية ، أو عند نقص الموارد الطبيعية كالماء وسائر الثروات ، كرد فعل لها ، حتى إذا ما انقشعت سحب هذه الأزمات ، وتبددت مخاوفها عاد الناس أدراجهم ،

(١) سورة النحل ، من الآية : ٩٧ .

(٢) رواه البخارى

(٣) متفق عليه .

ونكصوا على أعقابهم ، يَحْيُونَ سِيرَتَهُمُ الْأُولَى ، إِسْرَافاً وَتَبْذِيراً وإهداراً للموارد، كما أن الترشيد لا يعنى التقتير والبخل المذمومين، وإنما هو الاعتدال فى كل أمر وعلى أى حال ، ولا يقتصر هذا المبدأ على الأحياء ، بل إنه يمتد ليشمل أكفان الموتى مراعاة لحال الأحياء .

وعلى هذا المبدأ تتضافر النصوص وتتوافر ، مبينة لنا أهمية الترشيد حتى مع وفرة الموارد ، معرضة بالتبديد والتبذير ، منفرة منه .

* مظاهر الترشيد فى المنهج الايمانى :

(أ) الترشيد فى الإنفاق :

يقول الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (١) .

وعن معبد الله بن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه » (٢) .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٣) .

(ب) الترشيد فى المطعم والمشرب :

يقول الله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٤) .

(١) سورة الفرقان : ٦٧ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) سورة الإسراء : ٢٩ .

(٤) سورة الأعراف ، من الآية : ٣١ .

ويقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (١) .
 عن عبد الله بن محصن الأنصاري الخطمي قال : قال رسول الله - ﷺ :

« من أصبح منكم آمناً في سربه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ،
 فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقها » (٢)

عن أبي كريمة المقدم بن معديكرَب قال : سمعت رسول الله - صلى
 الله عليه وسلم - يقول : « ماملأ آدمى وعاءَ شراً من بطن ، بحسب ابن آدم
 أكَلَات يُقَمِّنُ صُلْبَهُ ، فإن كان لا محالة ، فثَلثَ لَطْعَامَهُ ، وثَلثَ لَشْرَابَهُ ،
 وثَلثَ لِنَفْسِهِ » (٣) .

(ج) الترشيذ فى استخدام الموارد الطبعية :

ومن أبرز مظاهر الترشيذ فى هذه الموارد الترشيذ فى استخدام الماء ، فقد
 حرص الإسلام على ضرورة المحافظة على الماء كماً وكيفاً حتى لا تتعطل
 وظيفته ومهمته ، وبالتالي تتعطل الحياة ، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله
 مرَّ بسَعْدٍ وهو يتوضأ فقال : « لا تسرف » فقال : يا رسول الله أوفى الماء إسراف؟
 قال : « نعم ، وإن كنت على نهر » (٤) ، وعن أبي بن كعب ، أن النبى -
 ﷺ - قال : « للوضوء شيطان يقال له الولهان ، فاتقوا وسواس الماء » (٥) .

(١) سورة التكاثر : ٨ .

(٢) رواه الترمذى وحسنه .

(٣) رواه الترمذى وحسنه .

(٤) رواه أحمد .

(٥) رواه الترمذى .

وعن أم سعد قالت : قال رسول الله - ﷺ - : « يُجْزَى فِي الْوُضُوءِ مَدٌّ ، وَفِي الْغُسْلِ صَاعٌ ، وَسَيَأْتِي قَوْمٌ يَسْتَقْلُونَ ذَلِكَ ، فَأُولَئِكَ خِلَافُ أَهْلِ سُنَّتِي ، وَالْأَخَذُ بِسُنَّتِي فِي حَظِيرَةِ الْقُدُسِ ، مَنْزِلَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » (١) .

عن جابر بن عبد الله قال : «يجزئ في الوضوء المَدُّ (رطل وثلاث رطل) ، ومن الغسل من الجنابة الصاع (أى خمسة أرطال وثلاث رطل ؛ لأن الصاع أربعة أمداد) ، فقال رجل : ما يكفيني ، فغضب جابر حتى تَرَبَّدَ وجهه (تغير إلى الغبرة) ثم قال : قد كفى مَنْ هُوَ خَيْرُ مَنْكَ وأكثر شعراً » رواه الأثرم في سننه موقوفاً ، والإمام أحمد في مسنده مرفوعاً ولفظه : «يجزئ من الغسل الصاع ومن الوضوء المد » .

(د) الترشيذ فى الملابس :

يقول رسول الله - ﷺ - فيما رواه معاذ بن أنس : «من ترك اللباس تواضعاً لله ، وهو يقدر عليه ، دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يُخَيَّرَهُ مِنْ أَى حُلٍّ الْإِيمَانُ شَاءَ يَلْبِسُهَا » (٢) . والمراد ترك الملابس المحرمة كالحرير ، ويقول رسول الله - ﷺ - : «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » (٣) . وهذا فى الملابس والحلى المشروعة ، ولا شك أن تحقيق التوازن بين هذين المطلبين ترك اللباس فى الحديث الأول ، ومحبة الله لظهور أثر النعمة على العبد ، وذلك باتخاذ الزينة واللباس المباح - هو الترشيذ والاعتدال ، وعن حذيفة قال : «نهانا رسول الله أن نشرب فى آنية الذهب والفضة ،

(١) رواه أبو بكر عبد العزيز فى كتاب الشافى .

(٢) رواه الترمذى وحسنه .

(٣) رواه أحمد .

وَأَنْ نَأْكُلَ فِيهَا ، وَعَنْ لُبْسِ الْحَرِيرِ وَالْدِيَّاجِ ، وَأَنْ نَجْلِسَ عَلَيْهِ » (١) .

(هـ) الترشيد في العبادة :

وهذا يعنى الاقتصاد فيها مع إتمامها ، عن عائشة أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ قَالَتْ : « مِنْ هَذِهِ ؟ » قَالَتْ هَذِهِ فُلَانَةٌ تَذَكَّرُ مِنْ صَلَاتِهَا ، قَالَ : « مَهْ » - نَهَى وَزَجَرَ - عَلَيْكُمْ بِمَا نَطِيقُونَ ، فَوَاللَّهِ لَا يَمْلِكُ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا » (٢) . وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ .

وعن ابن مسعود قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : « هَلِكُ الْمُتَنَطِّعُونَ » (٣) . قَالَهَا ثَلَاثًا ، وَالْمُتَنَطِّعُونَ : الْمُتَشَدِّدُونَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ التَّشَدُّدِ .
وعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ : « إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يَشَادَ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرُّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ » (٤) .

(و) الترشيد في أكفان الموتى :

عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : « لَا تَغَالَوْا فِي الْكَفَنِ ، فَإِنَّهُ يُسَلَبُ سَلْبًا سَرِيعًا » (٥) أَيْ يَبْلَى بِسُرْعَةٍ .
وعن عائشة قَالَتْ : « كَفَّنَ رَسُولُ اللَّهِ فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ بَيْضَ سَحْوَلِيَّةٍ (اسم قرية في اليمن تصنع هذه الثياب) ، مِنْ كُرْسَفٍ (قطن) لَيْسَ فِيهَا

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه أبو بكر عبد العزيز فى كتاب الشافى .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه الترمذى وحسنه .

(٥) رواه أبوداود .

قميص ولا عمامة» (١).

وعن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - قال : « البسوا من ثيابكم
البياض ، فإنها من خير ثيابكم ، وكفّوا فيها موتاكم » (٢).

٤ - انقياد الكون لأمر الله :

إن كل ما فى هذا الكون ، من عرشه إلى فرشه مخلوق لله ومربوب له ،
ومنقاد وخاضع لأمره ، والحياة الإنسانية تسير وفق هذا النظام ، فمن سلك
طريق التقوى وتركية النفس وفقه الله للفلاح ، ومن سلك طريق الفجور
والتردى كانت نتيجة عمله الخيبة والبور ، يقول الله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ
وَمَا سَوَّيْنَاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ
مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (٣) . ولكن كثيراً من الناس يسىء فهم هذه الحقيقة ،
فيخيّل إليهم أنهم قادرون على الخروج من هذا السنن ، ناسبين أو متناسين
أن الذى يختار آياً من الطريقتين فلا بد أن يخضع لقانونه ، وأن شرف الغاية لا بد
أن يسبقه نبل الوسيلة .

وحتى نتذكر ذلك جيداً فلنتدبر قول الله تعالى :

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ فَلَوْلَا تَصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَنْتُمْ
تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البغوى فى المصابيح .

(٣) سورة الشمس : ٧ - ١٠ .

بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ *
 وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ
 تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ
 تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ
 * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا
 تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ
 الْمُنْشِعُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ
 الْعَظِيمِ ﴿١﴾ . ففقدرة الله تعالى على منع هذه النعم وغيرها - عند جحودها

- أيسر عليه وأهون من منحها ، فالله وحده هو الخالق وهو الزارع ، وسائر
 النعم هي منه محض فضل ، فهو وحده الزارع على الحقيقة ؛ لأنه هو الذي
 أودع في البذرة قوانين الإنبات والنمو والإثمار ، فالجذير يتجه إلى أسفل
 (انتحاء ضوئياً سالباً) ، والساق يتجه إلى أعلى (انتحاء ضوئياً موجباً) ،
 ويحصل هذا النبات على غذائه من الماء والعناصر الأخرى ، ثم يقوم بتحويل
 كل هذا إلى صور أخرى نافعة ومفيدة للإنسان أو الحيوان : ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ
 مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْأَكْلَيْنِ﴾ (٢) .

ومارأينا هذه النبتة الصغيرة تمردت يوماً على قانون خالقها ، فاتجهه الجذير
 إلى أعلى ، ولا اتجه ساقها إلى أسفل ، ولوحدث هذا لأضحى وجه الأرض
 قاحلاً ماحلاً ، ولكن الإنسان هو الذي دأب على التمرد ، يعيث في الأرض .

(١) سورة الواقعة : ٥٧ - ٧٤ .

(٢) سورة المؤمنون : ٢٠ .

فساداً ، يطغى إذا استغنى ، يظلم القوى الضعيف ، لا يعتبر الغنى بحال
الفقير .. !!

إن علماء الحضارة والاجتماع يرون أنه لاسبيل للنجاة من المصير المشئوم
إلا بركة روحية ، وتشبث بالقيم الأخلاقية ، واسترداد للمناهج الدينية المتدهورة ،
بحيث يعود للإنسان توازنه الطبيعي بعد اختلاله لقرون طويلة من تأثير المادة ،
كما يجب التمسك والاستعانة بالتقاليد الدينية التى تتضمن الإرشادات
الأخلاقية لحماية البيئة ، بل لحماية البشرية ، وهذا ما يقرره المنهج الذى سبق
أن أوضحنا بنوده لتكون نبراساً للسالكين .

(جـ) معونة الله تاتى عند الالتزام بمنهجه :

• حلول البركة فى الأرزاق والأقوات والآجال :

إذا أخذ الإنسان بالأسباب المشروعة ، وتوكل على الله حق التوكل ؛ فإن
معونة الله تاتيه فى صور شتى ، من أجلها وأهمها البركة ، التى إذا حلت فى
الأرزاق والأقوات والآجال أكسبتها النفع العظيم والخير العميم ، فيأتيه الرزق
من حيث لا يحتسب ، ويسخر الله له كل شئ ، وما يصدق فى هذا الشأن
على الفرد يصدق على المجتمع ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ
لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ * إِنَّ
اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (١) .

ويقول عز من قائل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم
بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) .

(١) سورة الطلاق : آخر الآية الثانية ، وبعده الآية الثالثة .

(٢) سورة الأعراف ، من الآية : ٩٦ .

ويقول : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۚ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجْ إِلَّا نَكِذَا كَذَلِكَ نَصْرِفُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (١) ..

والله يضرب المثل التوضيحي لذلك فيقول : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) ، ويقول رسول الله - ﷺ - فيما رواه عنه عمر بن الخطاب : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خميصاً وتروح بطاناً » (٣) ، ويقول عمر : بين العبد ورزقه حجاب ، فإن قنع ورضيت نفسه آتاه الله رزقه ، وإن اقتحم وهتك الحجاب لم يزد فوق رزقه .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يعلم » (٤) ، عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من أحب أن يُيسَّطَ له في رزقه ، وينسأ له في أثره فليصل رحمه » (٥) . وسيرة النبي - ﷺ - حافلة بألوان من معونة الله له ومن البركة ، هي بالنسبة له معجزات ، ولغيره من عباد الله الصالحين كرامات ، كتكثير الطعام والشراب حتى يكفي القليل منه الجمع الغفير ، فمن أراد الاطلاع فليراجع كتب السيرة والحديث ، ومن أروع ما تطالعنا به كتب الحديث في هذا

(١) سورة الأعراف : ٥٨

(٢) سورة البقرة : ٢٦١ .

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال : حسن صحيح .

(٤) أخرجه الديلمي من حديث عمر بن راشد بسنده عن أبي هريرة مرفوعاً به ، وابن راشد ضعيف

جداً ، وقال البيهقي هذا حديث ضعيف في مرة .

(٥) متفق عليه .

الشأن تلك القصة الطريفة :

عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ قال : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِفَلَائَةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ : اسْقُ حَدِيقَةَ فَلَانٍ ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابَ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ (أَرْضٍ مُلْبَسَةٍ حِجَارَةً سَوْدَاءَ) ، فَإِذَا شَرْجَةٌ (مَسِيلُ مَاءٍ) مِنْ تِلْكَ الشَّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعِبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ ، فَتَتَبَعَ الْمَاءَ ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ ؟ قَالَ : فَلَانٌ لِلَّاسِمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنْ اسْمِي ؟ فَقَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاءُهُ يَقُولُ : اسْقُ حَدِيقَةَ فَلَانٍ لِاسْمِكَ ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا ؟ فَقَالَ : أَمَّا إِذْ قُلْتُ هَذَا ، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، فَأَتَصَدَّقُ بِثَلَاثَةِ ، وَأَكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثَلَاثًا ، وَأُرَدُّ فِيهَا ثَلَاثَةً » (١) .

فنحن نرى من سياق هذا الحديث أن ذلك الرجل كان يأخذ بالأسباب في تحصيل رزقه ورزق أولاده ، فيعمل في حديقته بجد ونشاط ، وكانت خطته في التصرف في محصول البستان أن يقسمه أثلاثاً ، ثلث يتصدق به ، وثلث لإصلاح البستان وترميمه ، وثلث لقوته وقوت عياله ، فببركة هذا التصرف الحكيم يسر الله له أسباب البركة ، وقد تمثلت في توجيه السحاب الذي يحمل الأمطار ليلقى بحمولته من الماء العذب على هذه الأرض فتحيا وينبت الزرع ، يأخذ الرجل أضعاف ما أخرج في سبيل الله من صدقة .

(١) متفق عليه .

تلك قصة من قصص النبوة تلقاها المسلمون الأولون بالقبول الحسن ،
وعملوا بمقتضاها ، فقد تثبتوا منها لأنها صدرت عن الصادق الأمين - ﷺ ،
فماذا فعل ماديُّو العصر الحديث ؟ لكي نعرف ذلك فإن الشيخ محمد الغزالي
يُصَحِّبنا في سِفَره الجليل « مع الله » فيقول لنا : لا بد من استجماع الأسباب
المادية إلى جانب ذكر الله ، فأما اعتماد الغربيين على المادة بعيداً عن الخالق
الأعلى ، واعتماد الشرقيين على الله مهملين أسبابه التي مهّدها ، فذلك
شروء عن الصواب ، والإسلام يقوم برعاية الحق من جميع وجوهه ، وتلك
هى أوامر الله التي يجب تنفيذها ، ولاخيرَ فى الناس ولابركة فى الدنيا إلا إذا
قويت الصلة بالله ، واحترمت السنن التى وضعها ...

قال الأستاذ الصاوى فى إحدى كلماته « ما قل ودل » : « العلم لا
يكفى ، بل لابد من الإيمان » . لقد تعلمنا فى صغُرنا أن الصلاة تنهى عن
الفحشاء والمنكر ، وأنها الأساس الطيب لكل ما فى الدنيا من خير ، وما فى
الآخرة من رحمة ، ولكن ها هوذا العلم الحديث نفسه يشهد اليوم أن الصلاة
كالماء العذب تجعل النبات ينمو ويزدهر إذا ماضى الزارع له ... !!

أما إذا تركه وشأنه فإن البذرة فى الأرض قد تتعفن ، وتفسد ، ولا ترى نور
الشمس ، أو تخرج ثم يذوى نبتُها ويذبل !! هذه هى الحقيقة التى أسفرت
عنها التجربة فى بعض المعامل الأمريكية فى « لوس أنجلوس » .

ولعلها تردع العلماء الذين يؤمنون بالعلم وحده ، والذين ينكرون أن
للروح تأثيرها الساحر فى الكائنات ، وأن خيرَ الزاد التقوى ، كما قال الله -
جل شأنه .

فمنذ عام ١٩٥٢م وهم يُجرون في مؤسسة البحث الديني شتى التجارب للتدليل على قوة الإيمان تدليلاً عملياً ... فإذا كنا نستطيع أن ننقل أفكارنا من رأسٍ بشر إلى رأسٍ آخر .. أفلاً يمكن أن نلقى إشعاعات الفكر على شكل صلاة ودعاء ونداء؟! وهل تؤدي الابتهالات التقية في عالمنا الذي يجرى وراء المادة الخسيسة ويكاد يكفر بكل ماعداها إلى هذه النتائج العظيمة؟!

لقد وضعوا في أحواض الزرع حبوباً صلّوا لها وباركوها ، ثم وضعوا حبوباً في أحواض أخرى بلا صلاة ولا دعاء ، فبنت الأولى نباتاً حسناً ، ونمت الأخرى في فقر وجذب ... سبحانك ربّي ، إنك أنت الزارع الأكبر ، وما كنا نحن الزارعين ! أقول : وهذا الكلام كذلك يمثل جوانب من الحق ، ونخشى أن يحيف على الجانب المهم ، وأن يتخذ منه الماديون مجالا لسخريتهم .

إن لإسلام مادي روحى ، أو هو - كما قررنا - الفطرة كاملة ، ولما كان أئى عمل يحتاج فى تمامه إلى جملة أسباب : بعضها فى أيدينا ، وبعضها موكول إلى الله ، فيجب أن نعلم أن الله لن يقوم عنا بما وكل إلينا فعله ، وفى حالة الزرع هذه لا بد أن نبذر ونحرث ونسقى ، وعلى الله بعد ذلك أن يمنع الآفات المفاجئة ، وأن يهيئ الجوَّ بما يُيسر الإنضاج وأن يتعهد بلطفه ماصنعناه .

وفى الحالات الأخيرة تجدى الصلوات والابتهالات ، وترتقبُ بعد ذلك البركات ، وحاجة العالم إلى معرفة هذا الجانب لا بد منها .. وهو ما يحجده

الماديون ، ويؤكد المأمون (١) .

(د) من صور تطبيق هذا المنهج :

رأينا صوراً مشرقة ، وأعصرأ رائقة ، التزم فيها المسلمون منهج الله الشامل ، فعرف كل واحد واجبه فقام به خير قيام ، ولم يطلب أزيد من حقه ، فكانوا بحق وصدق فى جبين الدهر شامة ، وكانوا للناس رادة وللدنيا قادة ، وصدق عليهم قول الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢) ، ونذكر النفس قبل الغير بما أفاء الله على الأمة الإسلامية من غنى كان مضرب المثل يوم أن استغلت كل الموارد البيئية والطاقات الإنسانية الاستغلال الأمثل فى ظل عقيدة الإسلام السمحة ، التى أخرجت الناس من عبودية البشر إلى شرف عبودية الله الذى بيده تصاريف القدر ، وأزف إليك - أخى القارئ - صوراً من هذه البشريات السارة التى تحققت على أرض واقع الأمة الإسلامية :

١ - بين معاذ وعمر بن الخطاب :

روى أبو عبيد قال : «إن معاذ بن جبل لم يزل بالجند إذ بعثه رسول الله ﷺ - إلى اليمن ، حتى مات النبى وأبو بكر ، ثم قدم عمر ، فرده على

(١) انظر مع الله ، جـ ١ ، ص ٢٦-٢٨ .

(٢) سورة النور : ٥٥ .

ما كان عليه ، فبعث إليه معاذ بثلاث صدقة الناس ، فأنكر ذلك عمر وقال : لم أبعثك جايئاً ولا آخذ جزية ، ولكن بعثتك لتأخذ من أغنياء الناس فتردها على فقرائهم !! فقال معاذ : ما بعثت إليك بشيء وأنا أجد أحداً يأخذه مني ، فلما كان العام الثاني بعث إليه شَطْرُ الصدقة (نصفها) ، فتراجعاً بمثل ذلك ، فلما كان العام الثالث بعث إليه بها كاملة ، فراجعه عمر بمثل ما راجعه قبل ذلك ، فقال معاذ : ما وجدت أحداً يأخذ مني شيئاً « (١) » .

٢ - عمر بن عبد العزيز ورخاء المسلمين في عهده :

لقد بلغت سعة النعمة وكثرة الطيبات في عهد خامس الراشدين عمر ابن عبد العزيز - رضى الله عنه - مبلغاً عظيماً ، علماً بأن خلافته لم تدم أكثر من ثلاثين شهراً ، حتى رأينا عامله على البصرة يكتب إليه ويقول : « إنه قد أصاب الناس من الخير خيرٌ حتى خَشِيتُ أن يبطروا » . فكتب إليه عمر : إن الله تبارك وتعالى حين أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، رضى من أهل الجنة بأن قالوا ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ (٢) . فمرُّ الناس قبلكَ (عندك) أن يحمداوا الله (٣) .

ومن صور هذه النعمة في عهده :

* إنشاء بنوك التسليف الزراعى :

روى أبو عبيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن - وهو بالعراق « أن أخرج للناس أعطياتهم (رواتبهم الدورية) ، فكتب

(١) انظر مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام : ص ١٥٣ .

(٢) سورة الزمر : جزء من الآية رقم ٧٤ .

(٣) مشكلة الفقر ، مرجع سابق ص ١٥٢

إليه عبد الحميد : إني قد أخرجت للناس أعطياتهم ، وقد بقى فى بيت المال مال (فائض فى الخزانة) ، فكتب إليه : أن أنظرُ كلَّ من أدان فى غير سفه ولا سرف فاقضِ عنه ، فكتب إليه : إني قد قضيت عنهم وبقى فى بيت المال مال ، فكتب إليه : أن أنظرُ كلَّ بكرٍ (أعزب) ليس له مال ، فشاء أن تزوجه فزوجهُ ، وأصدق عنه (ادفع له المهر) ، فكتب إليه : إني قد زوجتُ كلَّ من وجدت ، وقد بقى فى بيت مال المسلمين مال ، فكتب إليه : أن أنظر كلَّ من كانت عليه جزية (خراج) فضَعُفَ عن أرضه فأسلفه مايقوى به على أرضه ، فإننا لا نريدهم لعام ولا عامين .

وهكذا بلغ الرخاء والغنى - فى ظل عدل الإسلام - حدّاً استطاع معه كل ذى حق أن يحصل على حقه من خزانة الدولة بلا تظلم ولا طلب أو شكوى ، فقضيت الديون ، وتزوج غير القادرين على تكاليف الزواج ، ووجه الفائض إلى التنمية الزراعية ، والعمل على رفع مستوى الإنتاج بتسليف صغار الزراع من خزانة الدولة ما يعينهم على تحسين أرضهم وزراعتها ، حدث هذا قبل أن تعرف الدنيا بنوك التسليف الزراعى بمئات السنين ؛ ذلك لأن ابن عبد العزيز وأمثاله لم يدرسوا الاقتصاد على أيدي المستشرقين ولا المستغربين ، وإنما درسوا الاقتصاد الإسلامى فى صورة مبسطة لا تشوبها النظريات الجدلية العقيمة ، وأُشربت قلوبهم أنه لا جدوى من دراسة الجدوى إلا فى رحاب المنهج الأجدى ، وقد فطنَ عمر أيضاً أن حسن استغلال الموارد ليس قوة لأصحابها فحسب ، بل هو قوة للدولة أيضاً ، وأن على الدولة قبل أن تبحثَ عن حقها فى الضرائب التى تحصلها من ثروات الممولين ، عليها أن تتذكر

واجبها فى معونتهم وإمدادهم بما يَقْوُونَ به على أداء واجباتهم المالية بِسُرٍّ وانتظام .

* امتداد الرخاء إلى القارة السوداء (إفريقيا) :

لم يكن هذا الغنى والرخاء والسعة فى آسيا وحدها ، وإنما امتد إلى الأرض التى أشرق فيها نور الإسلام ، فى إفريقيا ، قال يحيى بن سعيد : «بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقيا ، فاقترضتها ، وطلبت فقراء نعطيتها لهم ، فلم نجد فقيراً ، ولم نجد من يأخذها منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشترت بها رقاباً فأعتقتهم» (١) .

إذا عجبت الدنيا عند سماع هذه الأخبار التى تكاد تبلغ حد الخيال ؛ فنحن لا نعجب وإنما نفخر ، فقد صدقت نبوءة رسولنا الكريم ، فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يكثرفيكم المال فيفيض ، حتى يَهْمَ رَبُّ المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذى يعرض عليه : لأرَبَ لى » (٢) .

ولم يطل الزمن كثيراً حتى أدرك الناس هذا الغنى ، وماعودته على الله ببعيد ...

وأخيراً وليس بآخر ... هلاً من لحة إيمانية يُشْرِقُ على النفوس الحيرى سناها ؟ فتُصْنِى لقول الحق سبحانه : ﴿ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهَا * وَالْأَرْضَ وَمَا طَحْنَهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ ﴾

(١) المراجع السابق .

(٢) فتح البارى حـ ٣ ص ١٨١ .

زَكَّيْنَهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿١﴾ .

أوهلاً من شذرة فواحة تستنشق النفوس المكدودة المجهودة عطرها
وشذاها؟ وهلا توحدت صفوف المستضعفين قبل أن تثور عليهم البيئة
فتصليهم بلظاها، مُرددة في سمع الزمان وبصره : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي
مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ (٢) ؟

ويرحم الله شوقياً يوم أن قال :

فَقُلْ رَبِّ وَفِّقْ لِلْعِظَائِمِ أُمَّتِي وزين لها الأفعال والعزمات

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة الشمس : ٥- ١٠ .

(٢) سورة لقمان ، من الآية : ١١ .

قائمة المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - صفوة التفاسير : محمد على الصابوني ، دارالقرآن الكريم ١٩٨١ م .
- ٣ - تفسير القرطبي .
- ٤ - المنتخب فى تفسير القرآن الكريم : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط ١٠ عام ١٩٨٤ م .
- ٥ - رياض الصالحين : للإمام النووى ، دار المأمون للتراث ١٩٨٢ م .
- ٦ - تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث : لابن الديبغ الشيباني ، ط صبيح ١٩٦٣ م .
- ٧ - الأربعين حديثا النبوية مع شرحها : تحقيق وتخرىج أحمد عبد الله باجور . الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٢ م .
- ٨ - القصص الصحيح فى السنة النبوية : دراسة تحليلية وتربوية ، د. طلعت محمد عفيفى سالم ، الزهراء للإعلام ١٩٨٨ م .
- ٩ - صفوة الفقه النبوى فى الطهارة والصلاة : أنور على عاشور ، البشير ، ط ٥ - عام ١٩٨٨ م .
- ١٠ - مشكلة الفقر وكيف عالجه الإسلام : د . يوسف القرضاوى ، مكتبة وهبة ١٩٦٦ م .
- ١١ - العقائد الإسلامية : الشيخ سيد سابق .
- ١٢ - مع الله ، الشيخ محمد الغزالي ، ط مكتبة أخبار اليوم الإسلامية ١٩٩٢ م .

١٣ - علم بيئة الحشرات : د . عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدى ، مؤسسة
سعد للطباعة ١٩٨٠ م .

١٤ - الإسلام والبيئة : عبد الواحد إسماعيل القاضى ، دار الاعتصام
١٩٩١ م .

١٥ - التلوث : (دوبرت لافون جرامون) ، ترجمة : نادى القبانى ، توزيع
الأهرام ١٩٧٧ م .

١٦ - من أجل وعى بيئى خليجى : د . إسماعيل محمد المدنى ، وزارة
الإعلام ، البحرين .

١٧ - الحشرات الناقلة للأمراض : د . جليل أبو الحب ، عالم المعرفة ٥٤ .

١٨ - منهج العاملين فى الدعوة : د . محمد زين الهادى ، مركز الكتاب
للنشر - القاهرة .

١٩ - سيرة النبى - صلى الله عليه وسلم - لابن هشام .

- مجلة الشباب : العدد ١٧٩ يونيو ١٩٩٢ .

- مجلة العربى : أعداد ٤٠٢ و ٤٠٣ و ٤٠٤ و ٤٠٥ لعام ١٩٩٢ م .

- عالم الفكر : المجلد الثانى . ١٩٨٢ .

- جريدة الراية القطرية فى ١٦/٦/١٩٩٢ .

- علم البيئة النباتية : د . أحمد مجاهد وآخرين ، الرياض ١٤٠٨ هـ .

- صحيفة الأهرام بتاريخ ١٦ مارس ١٩٨٠ .

- نسيج الحياة قصة حياتنا المتطورة : جوزيف وود كراتش ، ترجمة

الدكتور مصطفى عبد العزيز ، دار القلم ١٩٦٥ م .